«الباب الأول في كيفية دلالة السموات والأرض على إثبات الصانع عز وجل وعلا»

اعلم أنه تعالى ذكر في الكتاب الكريم مبدأ تكوّن السمٰوات وأحوال بسطها[1] وأحوال معادها وفيه فصول:

الفصل الأول:
في شرح مبدأ تكوّن السمٰوات

اعلم أنه ﷻ ذكر في هذا المعنى آيتين: الآية الأولى قوله تعالى في سورة الأنبياء [30]: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ وفي الآية سؤالان:

السؤال الأول: أن المراد من قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ إما الرؤية وإما العلم، لا يجوز أن يكون المراد هو[2] الرؤية لأن القوم ما رأوا كيفية تخليق السمٰوات لأنه تعالى قال: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: 51]. ولا يجوز أن يكون المراد هو العلم لأن الرتق والفتق عبارة عن الاجتماع والافتراق ولا شك أن الأجسام قابلة لكل واحد منهما بدلاً عن الآخر وإذا كان كذلك فلا سبيل إلى العلم بتقديم الرتق على الفتق إلا بقول الرسول عليه أفضل السلام، وهذه المناظرة كانت مع الكفار المنكرين للرسالة فكيف يجوز مثل هذا الاستدلال؟. فهذا أحد السؤالين في الآية.

السؤال الثاني: أنه ما معنى الرتق والفتق في الآية[3]؟.

---

(1) بسطها في (ب) وسطها.

(2) هو ساقط من (ب).

(3) أنه ما معنى إلخ في (ب) أنه ما يعني... إلخ.

واعلم أنّا نخوض في معنى الرتق والفتق[1] وفي أثناء الكلام يظهر الجواب عن السؤال الأول، **فنقول: لفظ الرتق والفتق يحتمل وجوهاً:**

الأول: أن الرتق إشارة إلى العدم والفتق إشارة إلى الوجود[2] وتقريره بحسب اللفظ أن الأجسام إذا كانت مرتقة لا يكون لبعضها تميز عن البعض، وإذا كانت متفتقة تميز بعضها عن البعض وإذا عرفت هذا فنقول: أن العدم نفي محض فليس فيه ذوات متميزة وأعيان متباينة فصح تسمية المعدوم[3] بالرتق من حيث أنه ليس امتيازاً أو بوجه ما، وإذا وجدت فقد تميز كل واحد من الجواهر عن غيره، وكل واحد من الصفات عن غيرها فصحّ تسمية الوجود بالفتق. من هذا الوجه وبهذا التأويل سمى الله تعالى خلق النور في وسط الظلمة بالفلق فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: 96] بل سمى نفس الإيجاد والتكوين بالفلق فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: 1] فكذا لا يبعد أن يريد بالفتق بعد الرتق الوجود بعد العدم.

وإذا عرفت هذا فيكون المراد من هذه الآية المراد من قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، ومن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 1] ومن قوله في أول سورة النحل [3] ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

وتمام وجه الاستدلال أن كل واحد من السمٰوات والأرض مختص بحيّز معين وبصفة معينة وبخاصية معينة[4] وبمقدار معين مع أنه لا يمتنع وقوعه في العقل على خلاف[5] تلك الخاصية والصفة والحيز، وإذا كان كذلك كان اختصاص كل واحد منهما بصفته وحيزه وشكله[6] لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وتدبير مدبر وتقدير مقدر، فدلَّ وجود السمٰوات من هذه الجهة ومن وجودها بعد أن لم تكن على افتقارها إلى[7] القادر المختار وإذا حملنا الرتق والفتق على هذا الوجه كان المراد من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أو لم يسلم. وذلك لأن دلائل الحدوث في ذوات السمٰوات وفي

---

(1) واعلم إلى وفي أثناء ساقط من (ب).
(2) أن الرتق إلخ في (أ) أن الرتق والفتق إشارة أي العدم إشارة إلى الوجود.
(3) المعدوم في (ب) العدم.
(4) وبصفة إلخ في (أ) وصفة وخاصية معينة.
(5) خلاف في (أ) خلق.
(6) كان.. إلى وشكله ساقط من (أ).
(7) افتقارها إلى ساقط من (ب) وكذلك (بعد أن لم) ساقط من (ب).

صفاتها جليّة قوية ظاهرة، والعلم إذا قوي وبعد عن مواقع الشكوك والشُبهات جاز أن يسمى بالرؤية لقوته وجلائه وكثرة شواهده ودلائله.

(الوجه الثاني): في تفسير الرتق والفتق أن الظلمة سابقة على النور ويدل عليه النقل والعقل أما النقل فوجوه:

(الأول): قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1] فقدم الظلمات على النور في الذكر.

(الثاني): قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5] فظاهر اللفظ على أنه جعلها ضياء بعد أن لم يكن كذلك.

(الثالث): قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: 37].

(الرابع): قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 35] أي منور السمٰوات والأرض وهذا يشعر[1] بأن النور متأخر عن الظلمة.

فإن قيل فهذا يشكل[2] بقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: 40] وهذا يدل على أن السابق هو النهار، **قلنا**: لا بد من التوفيق بين هذه وبين الآيات التي قدمناها فالمعنى: ولا الليل المتأخر يسبق النهار المتقدم.

أما المعقول فهو أن الليل ظلمة والظلمة عدم والنور وجود وعدم المحدثات تتقدم على وجودها فدل ذلك[3] على أن ظلمة العدم كانت سابقة على نور وجود هذه المحدثات.

إذا عرفت هذه القاعدة فنقول كانت السمٰوات والأرض مظلمة أولاً ثم أظهر الله الأنوار فيها فعبر عن الظلمة السابقة بالرتق وعن الأنوار اللاحقة بالفتق فلهذا قال:

---

(1) يشعر في (ب) مشعر.
(2) يشكل في (ب) مشكل.
(3) ذلك ساقط من (ب).

﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ ويتأكد[1] هذا بما روى أنه عليه أفضل السلام قال حاكياً عن رب العزة[2] جلَّ جلاله: «**خلق الخلق في ظلمة ثم رشّ عليهم من نوره**» وعلى هذا التفسير تكون الرؤية المذكورة في الرتق والفتق[3] في الآية بمعنى العلم.

(الوجه الثالث): في تفسير الرتق والفتق أن السمٰوات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتزقاً بعضها ببعض، ثم فصل الله بينهما وأقر الأرض حيث هي ورفع السمٰوات إلى العلو، وهذا القول يدل عليه وجوه:

(الأول): قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2] فوصف السمٰوات بأنها[4] مرفوعة وذلك يطابق ما قلناه من أن السمٰوات والأرض كانت بعضها ملتصقاً ببعض، ثمّ أنه ﷻ أقر الأرض في مكانها وأصعد أجزاء السمٰوات ورفعها إلى الجو العالي.

(الثاني): قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: 11] يروى أنه تعالى خلق جوهرة ثم نظر إليها بعين الهيبة فانذابت الجوهرة ثم سلط عليها الحرارة فارتفع على وجه الماء زبد وعلاه دخان، فخلق الأرض من الزبد وخلق السمٰوات من ذلك الدّخان، وهذا يدل على أن أجزاء السمٰوات والأرض كان بعضها مختلطاً بالبعض وملتصقاً به، ثم أنه تعالى ميّز البعض عن البعض وصيّر البعض زبداً وأسكنه حيث هو وأصعد الباقي إلى الجو العالي وخلق منه السمٰوات.

(الثالث): قوله تعالى في صفة السمٰوات: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: 28] وذلك يدل على أنه تعالى أصعد الأجزاء التي منها خلق السمٰوات عن السفل إلى العلو، وذلك هو المراد من الرتق والفتق.

واعلم أن وجه الاستدلال بالرتق والفتق على وجود الصانع بناء على هذا القول أن نقول:

---

(1) ويتأكد في (ب) ويؤكد.
(2) العزة في (ب) العرش.
(3) الرتق والفتق ساقط من (ب).
(4) بأنها في (ب) أنها.

لا شك أن كرة الأرض محفوفة[1] بالماء، والماء بالهواء، والهواء بالنار، والنار بالأفلاك، وكل فلك بفلك آخر إلى آخر الأفلاك فنقول: هذه الأفلاك والعناصر متساوية في الجسميّة؛ لأنه لا معنى للجسمية إلاّ الطويل العريض العميق، والكل متشاركة في هذا المعنى، ثم إنّ كل واحد من هذه الأجسام يخالف الآخر في الصفات والأعراض، وهي كون بعضها عالية والبعض سافلة والبعض لطيفاً والبعض حاراً والبعض بارداً؛ فنقول: اختصاص كل واحد من هذه الأجرام الفلكية والعنصرية بصفته المعينة وحيّزه المعيّن إما أن يكون لذاته أو لشيء من لوازم ذاته، أو لشيء[2] غير لازم لذاته، والأول والثاني يوجبان استواء الأجسام في كل الصفات وهو محال، والثالث يقتضي أن يكون اتصاف كل واحد من هذه الأجسام بما اتصف به أمراً جائزاً، وإذا كان الأمر كذلك استحال اختصاصه بتلك الصفة إلاّ لمرجّح ومخصّص، ثم ذلك المخصص إما أن يكون جسماً وإما أن لا يكون جسماً، فإن كان جسماً كان ذلك الجسم متميزاً عن سائر الأجسام بتلك المؤثريّة فيفتقر ذلك الاختصاص إلى مخصص ومرجح ويلزم التسلسل وهو محال. وإن لم يكن جسماً فإما أن يكون موجباً بالطبع[3] أو مختاراً، لا جائز أن يكون [موجباً] لأن نسبته إلى الكل على السّوية، فوجب أن يكون قادراً مختاراً[4] فثبت افتقار الأجسام من العرش إلى ما تحت الثرى إلى مؤثر، فاعل بالاختيار، قادر على جميع الممكنات، ليس بجسم ولا جسمانيّ وذلك هو الله تعالى.

وإذا عرفت هذا فنقول: المُراد من الرتق كون تلك المواد متشابهة في الماهية والحقيقة، والمُراد من الفتق اختصاص كلّ واحد منها بطبع معيّن وبشكل معين وبصفة معينة، وحيّز معيّن.

وعلى هذا التقدير تكون الرؤية بمعنى العلم.

الوجه الرابع: في تفسير الرّتق والفتق، أنّ السمٰوات كلها كانت سماء واحدة ثم إنه تعالى جعلها سبع سمٰوات.

---

(1) محفوفة: في (أ) محففة.
(2) لشيء: في (ب) لأمر.
(3) بالطبع: ساقط من (ب).
(4) مختاراً: في (أ) محتاجاً.

والذي يدل عليه قوله تعالى في أول سورة البقرة [29]: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، وهذه الآية دالّة على ما قلناه من وجهين:

أحدهما أنه تعالى قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ولفظة السماء دالّة على الواحدة.

الثاني أنه قال: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ والفاء تدل على التعقيب.

فهذا يدل على أن السماء كانت واحدة ثم أنه تعالى جعلها سبعة بعد أن كانت واحدة.

فإن قيل: فعلى هذا القول ما معنى فتق الأرضين بعد رَتقها؟

قلنا: أنه تعالى قال في سورة الطلاق [12]: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فلهذا السبب اختلفوا في تفسير الأرضين السبعة، فقال بعضهم: هي طباق سبعة بعضها أسفل من بعض كالسمٰوات، وقال آخرون: هذه الأرضون إشارة إلى الأقاليم السبعة فإنه تعالى[1] جعل لكل واحدة من هذه الأقاليم خاصيّة ومنفعة.

الوجه الخامس: في تفسير الرَتق والفَتق.

قال الغزالي رحمه الله في كتابه المسمَّى بالمضنون به على غير أهله:

الرتق عبارة عن انطباق دائرة البروج على دائرة معدل النهار، وفي ذلك الوقت ما كانت الأرض معمورة على ما عرف تحقيق ذلك في علم الهيئة، والفتق عبارة عن انفراج إحدى[2] هاتين الدائرتين عن الأخرى، وحدوث ميل فلك[3] البروج عن معدل النّهار، ولمّا حدث هذا الانفراج حدثت الفُصول الأربعة في الأرض، وحصل بسبب ذلك اختلاف الأهوية والبلدان والمساكن. فهذا هو المُراد من حدوث الفتق في الأرض.

واعلم أن وجه الاستدلال على إثبات الصانع الحكيم سبحانه بناء على هذين

---

(1) فأنه تعالى إلى خاصّية ساقط من (ب).
(2) إحدى: ساقط من (أ).
(3) فلك: في (أ) ذلك.

القولين ظاهر أيضاً؛ وذلك لأن على القول الأول أنّه ﷻ فصل بعض هذه الأفلاك عن بعض، وخصّ كل واحد منها بقدر معيّن وسير معيّن وجهة معيّنة، لحكمة ظاهرة في علم الغيب مستورة عن عقول الخلق[1]، فلا بد و[2] أن تكون تلك[3] القدرة غالبة ومشيئته نافذة على ما حققنا القول فيه.

وأما على القول الذي ذكره الغزالي ـ أنار الله بُرهانه ـ فاعلم أن منافع الرَتق والفَتق بهذا المعنى كبيرة ونحن نذكر منها شمَّةً فنقول: لو لم تكن للكواكب[4] حركة في هذا الميل لكان التأثير مخصوصاً ببقعة واحدة، فكان[5] سائر الجوانب يخلو عن المنافع الحاصلة منه، وكان الذي يقرب متشابه الأحوال وكانت القوة هناك لكيفية[6] واحدة: فإن كانت حارّة أفنت الرطوبات فأحالتها[7] كلها إلى الناريّة[8] ولم تتكون المتولدات، فيكون الموضع المحاذي لمَمرّ الكواكب[9] على كيفية واحدة[10]، وخط ما لا يحاذيه على كيفية أخرى وخط المتوسط بينهما [على] كيفية متوسطة، فيكون في موضع شتاء دائماً يكون فيه الشهوة والفجاجة وفي موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفي موضع آخر ربيع أو خريف، لا يتم فيه النضج فلو لم تكن عودات متتالية لكان[11] الكوكب يتحرك بطيئاً وكان[12] الميل قليل المنفعة ولكان التأثير شديد الإفراط وكان يعرض قريباً مما لم تكن سيّارة[13]، ولو كانت الكواكب أسرع من هذه لمَا كملت المنافع وما تمَّت.

---

(1) الخلق: في (ب) الخلائق.
(2) وأن: الواو ساقطة من (أ).
(3) تلك: في (أ) ذلك.
(4) للكواكب: في (أ) للكوكب.
(5) فكان: في (أ) لكان.
(6) لكيفية: في (ب) في الكيفية.
(7) فأحالتها: في (أ) وأحالها.
(8) الناري: في (ب) النيرانية.
(9) الكواكب: في (أ) الكوكب.
(10) واحدة: ساقط من (ب).
(11) لكان: في (ب) وكان.
(12) وكان: في (ب) فكان.
(13) قريباً مما لم تكن سيارة في (ب) قليلاً كما لو لم يكن قبل.

فأمّا إذا كان هناك ميل تحفظ الحركة في جهة ثم تنتقل إلى جهة أخرى بمقدار الحاجة ويبقى في تلك الجهة[1] بُرهة من الدهر ثم بذلك عظمت تأثيره وكثرت منفعته[2]، فسبحان الخالق المدبّر بالحكمة البالغة والقدرة غير المتناهية.

القول السادس: إنّ السمٰوات والأرضين[3] كانتا رتقاً بالاستواء والصلابة، فَفَتق الله[4] السماء للمطر والأرض للنبات والشجر ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: 11 - 12] وأكثر المُفسرين اختاروا هذا القول، واحتجّوا على ترجيحه على سائر الأقوال بقوله تعالى عقيبه:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: 30].

وهذا الكلام لا يليق ذكره بهذا الموضع إلّا والمُراد ما ذكرناه

فإن قيل: هذا الوجه ضعيف لوجهين:

أحدهما: أن المطر لا ينزل من السماء بل ينزل[5] من السحاب والسحاب بين السماء والأرض[6].

الثاني: أن بتقدير أن يكون المطر نازلاً من السماء لكنه ينزل من السّماء الدنيا لا من كل السمٰوات.

والجواب عن الأول: أنّ السّماء مُشتق من السموّ فكل ما سَمَاك أي[7]: عَلاَك فهو سماء. وعن الثاني: إنّما أطلق عليه لفظ الجمع لأن كل قطعة منها سماء كما يقال: ثوب أخلاق وبرمة أعشار.

---

(1) في تلك الجهة في (أ) كل جهة.
(2) ثم بذلك إلى منفعته: في (ب) ثم يميل إلى تلك الجهة عظمة تأثيره وكثرة منافعه.
(3) الأرضين: في (أ) الأرض.
(4) الله: ساقط من (أ).
(5) ينزل: ساقط من (ب).
(6) والسحاب بين السماء والأرض: ساقطة من (ب).
(7) ما سماك أي: ساقط من (ب).

واعلم أن هذا التأويل يجوز حمل قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ على الإبصار، فإنّ النّاس يشاهدون انصباب[1] السَّحاب بالمطر والأرض بالشجر، ثمّ وجه الاستدلال على وجود الصانع بناء على هذا التفسير أنّك ترى الهواء في غاية الصّحو ثم إنه ينعقد الغيم دفعة، وينزل من المطر ما يمتلىء منه الأدوية العظيمة ويقلع [الأشجار][2] العظيمة من شدة سيلانها.

ثم إن نزول ذلك المطر يصير سبباً لخروج الأنواع المختلفة من النبات من الأرض، وكل ذلك يدلّ على تقدير الصانع المختار الحكيم جلّ جلاله.

فهذه الأقوال الستة المذكورة ـ وإن كنا قد بالغنا في تقديرها ـ ولكن هٰهنا[3] وجوه أخرى يمكن حمل الآية عليها، فالأول: أن السمٰوات كانت رتقاً فما كان أحد[4] ينزل من السماء إلى الأرض وما كان أحد يصعد من الأرض إلى السماء، ثم إنه تعالى فَتَقَها فصارت الملائكة تنزل من السمٰوات إلى الأرض وصار البشر يصعدون من الأرض إلى السماء، أما نزول الملائكة فقال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: 64] وقال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾[5] [النحل: 2] وقال: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: 4].

وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: 193 - 194] وأما صعود البشر إلى السمٰوات، فقوله في إدريس: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: 57] وقال في عيسى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: 55] وقال في محمد ﷺ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: 9].

(الثاني) كانتا رَتقاً ففتقناهما [تارة] بإنزال أنوار الكواكب من السمٰوات العالية إلى الأرضين المستفلة كما قال: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: 3]. قيل أنه زُحل لأنه يثقب بنوره سُمك سبع سمٰوات[6] وهو الذي بعد الثريا فوق الدبران بقليل نجم أحمر ويُسمى

---

(1) انصباب: في (ب) إنفتاق.
(2) [الأشجار] في الأصلين الجبال.
(3) ولكن ههنا: في (ب) فههنا.
(4) فما كان في (أ) لما كان.
(5) وهذه الآية ساقطة من (ب).
(6) وهو الذي من هنا إلى وتارةساقط من (ب).

الحمل ويُسمى الثور، وتارة بصعود الدعوات والتضرعات من الأرضين إلى أعلى السمٰوات كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 10].

(الثالث) أن يحمل هذا الفتق على نزول القضاء والقدر من معاقد عِزّه على أركان عرشه ومن أركان عرشه إلى عالم[1] السمٰوات ثم إلى بقاع[2] الأرضين ثم قال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5]، وتمام الكلام في تحقيق نزول القضاء والقدر وعروجه سيأتي إن شاء الله في باب تحقيق القضاء والقدر.

(1) عالم في (أ) أركان.
(2) بقاع ساقط من (أ) وتارة ساقط من (ب).

الفصل الثاني:
في تفسير آية أخرى دلت على حدوث مبدأ السموات

قال ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:11] إلى قوله ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: 12] ونظير هذه الآية قوله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:29] وفي هذه الآية أبحاث.

البحث الأول:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾. واعلم أن قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ يدل على أمرين:

الأول: أنه يدل على أنه حين استوى الحق سبحانه إليها كانت سماء واحدة ثم قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ليدل على أنها إنما صارت سبع سمٰوات بعد ذلك لأن الفاء للتعقيب فصار قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ نظيراً لقوله في سورة البقرة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وصارت الفاء في قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت:12] في دلالته على أن هذا العدد إنما حصل بعد أن كانت السمٰوات لواحدة نظير الفاء في قوله في سورة البقرة «فسواهن سبع سمٰوات» في دلالته على أن هذا العدد إنما حصل بعد أن كان الكل واحداً وهو الرتق والفتق الذي شرحناه في الفصل الأول.

الثاني: أن الآية دالة على أن السمٰوات مخلوقة من الدخان واعلم أن تخليق السماء من الدخان دال على كمال القدرة ونهاية الحكمة، **وذلك في وجوه:**

الوجه الأول: أن الدخان في غاية الكدورة، والظلمة والسمٰوات في غاية الصفاء والنقاء والشفافية، فإظهار أصفى الأشياء صفاء ولطافة من أشد الأشياء كدورة وظلمة

من أدل الدلائل على كمال القدرة ونهاية الحكمة. ثم الذي يزيد هذا الكلام تقريراً وإيضاحاً ما روي في الخبر أنه ﷺ خلق جوهرة ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم سلط الحرارة على ذلك الماء فارتفع منه زبد وعلاه دخان فخلق الأرض من الزبد وخلق السمٰوات من الدخان، ثم إن الزبد يكون في غاية البياض والصفاء، والدّخان يكون في غاية الظلمة والكدورة فخلق الأرض الكدرة المظلمة من الزبد الأبيض الشفاف وخلق السمٰوات الشفافة الصافية من الدخان الكدر المظلم استدلالاً[1] بإخراج الضد من الضد على كمال القدرة ونهاية الحكمة ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: 80].

والنظير الثاني لهذا المعنى أن النار نورانية صافية[2] والتراب ظلماني كدر ثم خلق إبليس من النار وأغواه في ظلمات الكفر والضلال وخلق آدم من التراب ورباه بأنوار الهداية والإرشاد حتى يعرف الإنسان أن الكل من الله تعالى وبتقدير الله.

الوجه الثاني: أن الدخان مما يعمي العين ويبطل البصر ثم أنه تعالى زين السماء الدنيا[3] بزينة الكواكب وجعلها بحيث أن النظر إلى السماء وإلى الكواكب يزيد البصر قوة وكمالاً وجعل لون السماء الزرقة وهي أنصع الألوان ليعلم الإنسان أنه هو الذي يقلب الشيء عن صورة[4] إلى ضدها، فيعرف به كمال قدرته وحكمته.

الوجه الثالث: أن الدخان يكون سريع التفرق والتلاشي، ثم أنه تعالى وصف السمٰوات بأضداد هذه الصفات فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ وقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: 12] وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ [ق: 6].

الوجه الرابع: أن الدخان إذا توسط بين الناظر والمنظور إليه صار حجاباً بينهما ثم أنه تعالى خلق الكواكب النيرة في أجرام الأفلاك وعمق ثخنها مع أنه لم يصر شيء من أجرام الأفلاك حاجباً بين تلك الأنوار وبيننا، وكل هذه الأحوال يدل على أنه سبحانه هو القادر الذي يقلب الشيء من الضد إلى الضد، فلما قدر على أن يخلق من

---

(1) استدلالاً في (ب) ليستدل.
(2) صافية ساقط من (ب).
(3) الدنيا ساقط من (ب).
(4) صورة في (ب) صفة.

الدخان الكثيف هذه الأجرام النورانية الباقية المحفوظة فأي عجب فيما[1] لو أعاد الحياة إلى البدن بعد صيرورتها تراباً رميماً وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: 81] فالخلاّق إشارة إلى كمال القدرة وهي القدرة النافذة في جميع أجزاء الممكنات والمبتدعات[2] المستولية على كل أحوال المحدثات والكائنات وقوله العليم إشارة إلى كمال علمه المتعلق بجميع الجزئيات والكليات والحاضرات والغائبات والذوات والصفات والموجودات والمعدومات، ولا شك أن مدبر العالم متى كان موصوفاً بهاتين الصفتين كان كل عسير بالنسبة إلى كمال قدرته يسيراً، وكل صعب بالنسبة إلى عظمة قهارته وجلاله هيّناً فتبارك الله رب العالمين.

الموضع الثاني: من المواضيع التي اشتمل عليها هذه الآية في بيان ابتداء تخليق العالم قوله تعالى:

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11] وللناس في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن هذا الأمر والإجابة محمولان على لسان الحال لا على ظاهر المقال ويدل عليه وجوه:

الأول: أن السمٰوات والأرضين جمادات والأمر بالجماد[3] لا يليق بالحكمة.

الثاني: أنّها بتقدير أن تكون أحياء عاقلة فاهمة لكنها لا تقدر على التصرف في أنفسها وفي ذواتها لأن المتصرف في الشيء متقدم بذاته وصفاته على ذلك التصرف وتقدم الشيء على نفسه محال فثبت أنه يمتنع كونها قادرة على التصرف في نفسها.

الثالث: أنه سبحانه نصّ في محكم التنزيل على[4] أنه سبحانه هو الخالق

---

(1) فيما ساقط من (ب).
(2) والمبتدعات في (ب) والمبدعات.
(3) والأمر بالجماد في (أ) وأمر الجماد.
(4) في (أ) التنزيل كونها قادرة على.

لذوات[1] السمٰوات فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: 1] ثم بيّن في آية أخرى أنه سبحانه خلقها من العدم المحض والنفي الصرف فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم بيَّن في آية أخرى [2] أنه جعلها سبعاً شداداً فقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [النبإ: 12]، وبين أنه جعلها سقفاً محفوظاً فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32]، ثم بين أنه ﷻ الذي رفعها بغير علاقة ولا دعامة فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2]، ثم ذكر الله، سبحانه أنه[3] هو الذي وصف جميع أجرام السمٰوات بجميع صفاتها وأحوالها ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: 28 - 29] وإذا ثبت بهذه الآيات[4] المتأكدة بالبراهين العقلية أن المدبر والمقدر والمتصرف والخالق والموجد لذوات هذه السمٰوات ولصفاتها هو الله سبحانه لم يكن في أمرها فائدة ثم قالوا[5] والأمر والإجابة هاهنا عبارتان عن سرعة نفوذ قدرته ومشيئته بلا مانع ولا معارض ولا منازع.

ونظيره قول العرب: قال الجدار للوتد: لِمَ تشقى؟ فقال[6]: سل من يدقني؛ فإنّ الذي ورائي ما خلاني، وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: 40].

والمراد من هذا الأمر هو سرعة التكوين؛ وذلك لأنه إن أمره وهو معدوم فذاك محال، وإن أمره بعد الوجود فلا يمكن أن يقال للموجود كن موجوداً.

وأيضاً قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44] والمراد منه التسبيح بلسان الحال لا التسبيح بلسان المقال، فإن الجمادات لا قدرة لها على النطق. وأيضاً قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: 18] وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمٰن: 6] ومعلوم أن سجود الدوابّ[7] والشجر لا يكون إلّا بلسان الحال

(1) لذوات في (ب) لذات.
(2) في آية أخرى ساقط من (ب).
(3) أنه ساقط من (ب).
(4) الآيات في (أ) الآية.
(5) قالوا في (أ) قال.
(6) فقال: في (ب) قال.
(7) الدوابّ ساقط من (ب).

فكذا هٰهنا فهذا تمام الكلام على تقرير هذا القول.

الوجه الثاني: أنه لا يبعد في قدرة الله أن [خلق][1] فيها الفهم والعقل ثم أمرها وخاطبها فقال للسمٰوات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11] والذي يدل عليه وجوه:

الأول: الدلائل التي ذكرناها من القرآن والمعقول على أن الحيوانات عارفة ربّها[2]، وإذا لم يبعد خلق العقل ومعرفة الله تعالى في الحيوانات فأيّ بعد في خلق الحياة والفهم في أجرام الأفلاك؟!

الثاني: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: 143] والتجلي لا يمكن إلّا بعد خلق الفهم والإدراك.

الثالث: قوله ﷻ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: 10].

الرابع: قوله ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس: 65].

الخامس: قوله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: 72].

وبالجملة فهذا الاستبعاد زائل عند الاعتراف بكونه ﷻ قادراً على جميع[3] الممكنات عالماً بكل المعلومات.

ومما يدل على صحة هذا الوجه قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ ولو كانت السمٰوات جمادات لكان حق اللغة أن يقال: أتينا طائعات فدل قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ على أنه تعالى خلق فيهما[4] الفهم والعقل في ذلك الوقت.

---

(1) [خلق] في الأصلين يخلق.
(2) ربّها في (ب) بربّها.
(3) جميع في (ب) كلّ.
(4) فيهما في (ب) فيها.

واعلم أنّا سواء حملنا[1] هذا الأمر والإجابة على لسان الحال أو على لسان المقال فذلك[2] يدل على كمال عظمة الله ونهاية كبريائه وقدسه وعزته، وذلك يدل على أن كُلّ ما كان غائباً عن الحس والخيال والعقل فإنه لا سبيل إلى معرفة جلالته وعظمته إلا بمعرفة عظمة[3] آثار مخلوقاته ولا شك أن السمٰوات والأرضين أجسام في غاية من العظم والشدة والاتساع ثم إنّها مع ذلك منقادة لأمر الله وتسخيره وقهره وقدرته وتكوينه وتخليقه وذلك يدل على قدرة لا نهاية لكمالها، وحكمة لا غاية لجلالها.

ودليل إجابة[4] السمٰوات والأرضين على كمال عظمة الله تعالى قوله جلّ وعزّ في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ [هود: 44] فإن هذا النداء يدل على كون السمٰوات والأرضين مسخرة في قبضة قدرته وتصريف [حكمه][5]؛ ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]

الموضع الثالث: في ذكر الآية[6] قوله جلّ جلاله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12] وفيه سؤالان:

السؤال الأول: القضاء هو الإلزام، وذلك مشعر بسبق منازعة وقد دلت الآية على أنه ما كان فيها منازعة ومدافعة حيث قال مخبراً عنها: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾.

والجواب: لا نزاع في أنّ القضاء عبارة عن الإلزام لكن يجب أن يعلم أن ما سوى الله ممكن الوجود لذاته، والممكن هو الذي تكون[7] نسبة الوجود والعدم إليه على السوية، وإذا استوى الطرفان لم يكن في ذاته اقتضاء[8] ولا استلزام لا للوجود ولا للعدم.

---

(1) حملنا: في (أن) علمنا.
(2) فذلك: في (أ) وذلك.
(3) عظمة: ساقط من (أ).
(4) ودليل إجابة في (ب) ونظير دلالة إجابة.
(5) [حكمه] في الأصلين حكمته.
(6) في ذكر الآية في (ب) في هذه الآية.
(7) تكون: ساقط من (أ).
(8) اقتضاء: في (ب) قضاء.

ثم إنّ المُمكن لذاته ما لم يجب وجوده لأجل ترجيح مؤثر، لم يوجد فقوله ﷻ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ إشارة إلى ذلك الترجيح والتأثير الحاصل بسبب تخليقه وتكوينه، وذلك الترجيح هو الإلزام لأحد الطرفين لا محالة.

وعند هذه الدقيقة يظهر أن كل ما سوى الله فهو من حيث هو، هو غير موجود بل وجوده من إيجاد[1] الحق وبقاؤه من إبقاء الحق وعدمه من إعدام[2] الحق فإذا تأمّلت علمت أنه لا موجود بالحق إلّا الحق.

كما قال: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88].

السؤال الثاني: قال ﷻ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:12]، واليوم عبارة عن مدة حركة الشمس بحسب الطلوع والغروب فقبل خلق الفلك يمتنع حصول اليوم.

والجواب: المدة أمر وراء دور الفلك؛ وذلك لأن الحق سبحانه قديم والعالم محدث[3]؛ فتقدم[4] الباري على العالم ليس بسبب دور الفلك وحركة الشمس والقمر.

وأيضاً فالزمان إما أن يكون قديماً أو حادثاً.

فإن كان قديماً كان مستمراً من الأزل إلى الأبد، فذلك الاستمرار لا يكون لأجل الزّمان وإلّا لزم افتقار كل زمان إلى زمان آخر لا إلى نهاية وذلك محال؛ فثبت أن تعقل الاستمرار[5] والدوام لا يتوقف على وجود الزمان.

وإن كان الزمان محدثاً كان عدمه مستمراً من الأزل إلى الأبد فلا يكون ذلك الاستمرار موقوفاً على وجود الفلك وحركة الشمس والقمر. إذا ثبت هذا فنقول:

هذا الاستمرار هو الذي يسميه المتكلمون بالزمان المقدر والمدّة المفروضة، فتلك

(1) إيجاد: في (ب) اتحاد.
(2) إعدام: في (أ) عدم.
(3) محدث: في (ب) حادث.
(4) فتقدم: في (أ) فقدم.
(5) الاستمرار: في (ب) الاستمرارات.

المدة المقدّرة المفروضة هي المشار إليها بقوله ﷻ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وهذا كلام دقيق لا يتم المقصود منه إلّا بالكشف عن حقيقة الدهر والزمان وذلك من محارات العقول.

السؤال الثالث: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فبيّن أن تخليقه وتكوينه لا يحصل إلّا على هذا الوجه، وهذا يناقض قوله في هذه الآية: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾.

والجواب: أنه سبحانه قادر على الإيجاد دفعة واحدة وهو المراد بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وقادر أيضاً على الإيجاد جزءًا فجزءًا على سبيل التدريج، وأنه سبحانه فاعل مختار، وفي كل واحد من الوجهين حكم[1] وأسرار:

أمّا الحكمة في الإيجاد على سبيل التدريج هو أنّه لو حصلت مخلوقاته كلّها دفعة واحدة بحيث لا يخلق شيئاً أصلاً بعدها[2] أشبه ذلك تأثير ما يكون بالطبع وبالغلبة لا بالقدرة والاختيار؛ فإن الشمس إذا طلعت حصلت الإضاءة دفعة واحدة[3]، والسراج إذا حضرت حصلت الإضاءة دفعة، والنار إذا حضرت حصل التسخين والإحراق دفعة، فلو حصلت أفعاله دفعة واحدة لما تميّزت فاعليّته في عقولنا وأفكارنا عن تأثيرات العلل والموجبات[4] والطبايع.

وأمّا الحكمة في الإيجاد دفعة واحدة هي[5] أن أفعاله ﷻ لو حصلت أبداً على سبيل[6] التدريج ولم يحصل منها شيء دفعة لكان ذلك يوهم العجز والاحتياج[7] في الخالقية إلى مدة وآلة، ولمّا كان الأمر كذلك فلا جرم تارة يفعل ويخلق دفعة لئلا تبقى شبهة العجز والحاجة، وتارة على سبيل التدريج لئلا تبقى شبهة أنه موجب بالذات ومؤثر بالطبع، فهذا ما وصل إليه العقل[8] المختصر، وله ﷻ تحت كل فعل

(1) حكم في (أ) حكمة.
(2) بعدها: ساقط من (ب).
(3) واحدة: ساقط من (ب).
(4) والموجبات في (أ) والموجدات.
(5) هي: في (ب) هو.
(6) سبيل: ساقط من (ب).
(7) والاحتياج: في (أ) والحاجة والاحتياج.
(8) إليه العقل: في (ب) إليه هذاا لعقل.

حكمة وأسرار لا يعلمها إلا هو.

السؤال الرابع: لا شك[1] أن العالم الأكبر هو هذا العالم بما فيه من السمٰوات والأرضين والعالم الأصغر هو الإنسان، ولا شك أن العالم الأكبر أعلى وأعظم من العالم الأصغر، فإن العقل يدل عليه وكذا القرآن، قال ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57] ثم إنه تعالى خلق العالم الأكبر في ستة أيام وخلق العالم الأصغر[2] في ستة أشهر بدليل أنه تعالى قال: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: 15] ثم قال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: 233] فإذا أسقطنا مدة الرضاعة هي أربعة وعشرون شهراً عن ثلاثين شهراً بقي[3] الباقي لمدة الحمل ستة أشهر فما الحكمة في أن[4] جعل مدة تخليق العالم الأكبر ستة أيام ومدة[5] تخليق العالم الأصغر ستة أشهر؟

والجواب من وجوه:

الأول: أنا بيّنا أن الحكمة[6] قد تقتضي تخليق بعض الأشياء على سبيل التدريج إلا أنا بينا أن التخليق على سبيل التدريج يوهم العجز والحاجة إلى المادة والمدة والحق ﷻ أزال هذا الإشكال بأن خلق العالم الأكبر في ستة أيام وخلق العالم الأصغر في مدة ستة أشهر ليعلم الخلق أن التخليق على سبيل التدريج ليس لأجل العجز والحاجة إذ لو كان الأمر كذلك لكان تخليق العالم الأكبر في مدة أطول أولى فسبحان من له تحت كل شيء حكمة قدسية إلٰهية.

والثاني: قال بعضهم أنه تعالى لما أراد أن يخلق السماء[7] والأرض كان جبريل وميكائيل وسائر أكابر الملائكة عقلاء مكلفين فخلق الله العالم على مهل حتى يمكنهم الوقوف على دقائق الحكمة في ذلك التخليق.

---

(1) لا شك: ساقط من (ب).
(2) العالم: ساقط من (أ).
(3) (عن ثلاثين شهراً بقي) ساقط من (أ).
(4) أن ساقط من (ب).
(5) ومدة ساقط من (ب).
(6) أن الحكمة إلى قوله أن التخليق ساقط من (ب).
(7) أن يخلق السماء في (ب) تخليق السموات.

والثالث: لا يبعد أن يقال أنه تعالى خلق العالم على التدريج وأخبر عن ذلك حتى يصير ذلك شبهة في تخيّل العجز والحاجة في قدرة الله تعالى وهذا نوع ابتلاء وامتحان كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7] حتى أن الموافق يعلم أن ذلك التدريج ليس للعجز والحاجة بل للعبرة والحكم وكان هذا الابتلاء سبباً لمزيد الثواب في حق الموافقين ويظهر بسبب هذا المعنى أن هذا الدار دار ابتلاء وامتحان.

والرابع: أنه ﷻ بيَّن في هذه الآية أنه خلق[1] الأرض في يومين ثم خلق[2] كل ما في الأرض من الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوانات في يومين آخرين، ثم خلق السمٰوات السبع بما فيها من الشمس والقمر والنجوم والجبال[3] والعجائب والآيات في يومين آخرين، والحكمة فيه أنه لا نسبة للأرض وما فيها إلى السمٰوات وما فيها فإن الأرض في جنب السمٰوات كالقطرة في جنب البحر، فلما خلق الأرض على صغرها في يومين وخلق السمٰوات على كبرها وغاية عظمتها في يومين عرف أن ذلك التدريج ما كان لأجل العجز والحاجة بل لحكمة بالغة وأسرار خفية تعجز عقول الخلق عن الوقوف عليها.

(السؤال الخامس) أن قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يدل على أن تخليق السمٰوات متأخر عن تخليق الأرض، وقوله في سورة النازعات [30]: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ يقتضي أن تخليق الأرض وقع بعد تخليق السماء وحينئذ يحصل التناقض بين الآيتين:

والجواب أن فيه قولين:

(الأول)[4] أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ثم خلق السمٰوات ثانياً ثم دحى الأرض بعد تخليق السماء لأن التدحية عبارة عن البسط وحينئذ يزول التناقض بين الآيتين. واعلم أن على هذا القول إشكالين:

الأول: أن الأرض جسم عظيم يمتنع انفكاك تخليقها[5] عن التدحية فإذا كانت

---

(1) خلق في (ب) في خلق.
(2) ثم خلق في (ب) وخلق.
(3) والجبال ساقط من (ب).
(4) الأول في (ب) أحدهما.
(5) تخليقها في (أ) تدحيتها.

التدحية من لوازم تخليق ذات الأرض ثبت بالنص أن التدحية متأخرة عن تخليق السماء لزم أن يكون تخليق الأرض متأخراً عن تخليق السماء وحينئذ يعود الإشكال.

الثاني: الدلائل الاعتبارية دلت على أن الأرض الآن كرة وأيضاً أنه تعالى قال في سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:29] وهذا يدل على أن خلق الأرض وخلق ما فيها مقدم على خلق السماء[1]، لكن من المعلوم أن خلق الأشياء في الأرض لا يمكن إلا إذا كانت مدحوة، فهذه الآية تقتضي تقدم كون الأرض مدحوة على خلق السماء وحينئذ يعود السؤال، ومما يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:9-11] فهذه الآية تقتضي أنه تعالى جعل في الأرض رواسي من فوقها وبارك فيها بخلق البحار والأشجار والثمار، وقدر فيها أقواتها بخلق الزروع منها وكل ذلك حصل قبل خلق السمٰوات ومعلوم أن خلق الرواسي والأشجار والزروع لا يمكن إلا بعد تدحية الأرض فصارت هذه الآية مع الآية المذكورة في سورة البقرة تدلان على أن تدحية الأرض[2] حصلت قبل تخليق السماء وحينئذ يعود الإشكال، وأيضاً يقول تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: 30 - 32] يدل على أن[3] إخراج الماء وإرساء الجبال وتخليق المرعى كل ذلك وقع متأخراً عن تخليق السماء والآية الواردة في السجدة صريحة في أن كل ذلك قبل تخليق السماء[4] وحينئذ يعود الإشكال.

القول الثاني: في هذه المسألة قول من قال أن[5] السماء مخلوقة قبل الأرض واحتجوا عليه بالنقل والعقل، أما النقل **(فالحجة الأولى)** قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ وقد بينا في ما تقدم[6] أن كون الأرض مدحوة من لوازم وجود الأرض

---

(1) وهذا إلى قوله لكن من ساقط من (أ).
(2) على أن تدحية الأرض في (ب) على التدحية وأنها.
(3) أن ساقط من (أ).
(4) والآية إلى وحينئذ ساقط من (ب).
(5) أن ساقط من (أ).
(6) في ما تقدم في (ب) في الأول.

لأنها جسم عظيم والجسم العظيم وإن كان كرة إلا أن كل قوس[1] منها يكون في المنظر على شكل المستقيم[2] فيكون مدحوة لا محالة.

(الحجة الثانية) قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ سماها سماء حال الاستواء إليها ثم إنه تعالى جعلها بعد ذلك سبعة وهي المراد من قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: 12].

وهذا صريح في أنها كانت سماء قبل ذلك ثم صيرها الله سبعة بعد ذلك.

الحجة الثالثة: قوله تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1] فقدم السماء في الذكر على الأرض[3].

وأما المعقول فمن وجوه:

الأول: أن السماء كالزوج والأرض كالزوجة والسماء كالغني والأرض كالفقير فكان تخليق السماء قبل تخليق الأرض.

الثاني: أن السماء مسكن الملائكة والأرض مسكن البشر والملائكة قبل البشر وكان تخليق مسكنهم قبل تخليق مسكن البشر أولى: بقي أن يقال: ما معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ في سورة البقرة وفي سورة السجدة؟ فنقول فيه وجهان:

الأول: أن لا يكون المُراد من كلمة «ثم» الترتيب في الوجود بل المُراد الترتيب في الذكر كقول الرجل: أنت كذ وكذا ثم أنت بعدها كذا، ويكون المُراد الترتيب في الذكر، قال الله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: 13 - 14] إلى قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والمُراد منه الترتيب في الذكر.

الثاني: لعل السبب في تقديم ذكر الأرض على السماء هو أن الأرض أقرب إلينا من السماء أو لأجل أن السماء أعظم من الأرض وآياتها أعظم من آيات الأرض والانتقال من الحجة إلى الحجة إنما يحسن من الأدنى إلى الأعلى كما انتقل

(1) قوس في (ب) فرسخ.
(2) شكل المستقيم في (ب) الشكل المستقيمة.
(3) على الأرض ساقط من (أ).

إبراهيم عليه السلام من قوله (يحيي ويميت) إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 258] والله أعلم.

السؤال السادس: أنه تعالى قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 9] ثم قال: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: 10] فيكون المجموع ستة، ثم قال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 12] فيكون المجموع ثمانية أيام فظاهر هذه الآية يقتضي أنه تعالى خلق السمٰوات والأرض في ثمانية[1] أيام فيكون هذا مناقضاً لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: 54].

والجواب: أن تخليق الأرض حصل في يومين وتخليق الجبال وغيرها[2] حصل في يومين آخرين وكان المجموع أربعة، وهو المراد بقوله: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: 10] ثم يحصل تخليق السمٰوات في يومين آخرين فكان مجموع الأيام ستة، فقد زال السؤال والإشكال في هذه الآية الموضع الرابع[3] قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ وسنذكره إن شاء الله في[4] باب الملائكة.

---

(1) ثمانية في (ب) ستة.
(2) وغيرها في (أ) بعدها.
(3) الموضع الرابع ساقط من (أ).
(4) باب في (ب) آيات.

الفصل الثالث:
في الاستدلال بصفات السموات وأحوالها الموجودة في هذا الوقت على أن لها صانعاً ومدبراً

قال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ إلى قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: 3-5]، وقال في سورة آل عمران [190]: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وقال في أول سورة الأنعام [1]: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وقال في هذه السورة حكاية عن الخليل ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وقال في سورة الأعراف [54]: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وقال في أول النحل [3]: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ وقال في أول سورة سبأ [1]: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقال في سورة الملائكة [1]: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي القرآن في هذا الجنس آيات كثيرة.

وأقول أن[1] هذا البحث لا يتخلص إلا بذكر[2] مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير لفظ الخلق بحسب اللغة نقول: المشهور في اللغة أن الخلق عبارة عن التقرير واحتجوا عليه بالقرآن والشعر والاستعمال:

أما القرآن فآيات:

أحدها: قوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14] أي: المُقَدِّرين.

---

(1) ساقط من (ب).
(2) ذكر ساقط من (ب).

وثانيها: قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: 110] أي: تقدر.

ثالثها: أن يسمى الكذب خلقاً واختلافاً يقال: هذا حديث مخلوق ومختلق أي كذب لا أصل له، قال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: 17] أي تقدرون كذباً، وقال حكاية عن الكفار: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 137] يريدون الكذب، والسبب في تسمية الكذب بالخلق والاختلاق لأن الكاذب يضمر ذلك الكذب في ذهنه ويقدره في خاطره.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59] قدم التخليق على التكوين، فدلّ على أن التخليق عبارة عن التقدير وهو متقدم على التكوين، وأما الشعر فكقول زهير:

لأنت تفري ما خلقت وبعض القوم تخلق ثم لا يفرى

وقال[1]:

ولا تنط بأيدي الخالقين ولا يدي الخوالق الأجدا لآدم

وأما الاستشهاد: فيقال: خلق النعل إذا قدرها وسواها بالمقياس، ومنه قول العرب للمقدار المعين من الخلق: الخلاق، ويقولون: هو خليق بكذا، أي: جدير به، أي: حقيق، أي هذا الشيء على قدر استحقاقه، والصخرة الخلقاء: الملساء لأن الملاسة عبارة عن صيرورة جميع أجزاء الشيء بقدر واحد، ومنه أخلق الثوب: إذا بلى وصار أملس واستوى جميع أجزائه؛ فثبت بهذه الوجوه أن الخلق عبارة عن التقدير، وهذا الذي قلناه هو قول جمهور المعتزلة، ثم القائلون بهذا القول[2] اختلفوا فقال أبو عبد الله البصري منهم: إطلاق اسم الخالق على الله محال في الحقيقة لأن التقدير عبارة عن الفكر والنظر والحسبان وذلك في حق الله محال. وقال تلميذه القاضي عبد الجبار بن أحمد: التقدير عبارة عن العلم بعواقب الشيء وهذا المعنى حاصل في حق العبد وفي[3] حق الله تعالى ،أما في العبد فإنه قد يحصل له هذا العلم بناء على

(1) وقال. . . هذا البيت ساقط من (ب).
(2) بهذا القول ساقط من (أ).
(3) في ساقط من (أ).

الأمارات اللائحة والواضحة وبسبب الفكر والرّوية، وأما في حق الله تعالى فلا شك في حصوله وإذا كان الأمر كذلك كان إطلاق لفظ الخالق[1] على الله تعالى وعلى العبد على سبيل الحقيقة. وأما أصحابنا من أهل السنة والجماعة فقالوا: الخلق حقيقة في الإيجاد والإبداع والاختراع والذي يدل على هذا وجوه:

الحجة الأولى: قوله تعالى في أول سورة الفرقان [2]: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ ولو كان الخلق عبارة عن التقدير لصار تقدير الآية: وقدر كل شيء فقدره تقديراً ومعلوم أنه تكرير من غير فائدة، أما إذا حملنا الخلق على معنى[2] الإيجاد لم يحصل التكرار وانتظم الكلام.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49] ولو كان الخلق هو التقدير لكان قوله: ﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ تكريراً من غير فائدة.

الحجة الثالثة: إجماع سلف الأمة على أنه لا خالق إلا الله، وأيضاً فقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: 24] يقتضي أن لا يحصل هذه الصفات إلا لله سبحانه كما إذا قلت: زيد هو العالم، فإنه يقتضي حصر هذا[3] الوصف فيه، فإذا ثبت أنه لا خالق إلا الله وثبت أن غير الله مصوّر ومقدر علمنا أن أصل الخلق ليس عبارة عن التقدير.

وأما الجواب عن الوجوه التي تمسكوا بها فنقول: الوجوه التي ذكرتم تدل على استعمال لفظ الخلق[4] بمعنى التقدير والوجوه التي ذكرنا تدل على استعمال لفظ الخلق من غير معنى التقدير بل في معنى الإيجاد والإبداع والاختراع فنقول: لا بد من جعله حقيقة في أحدهما، مجازاً في الآخر فنقول: من فرض شيئاً وقدره مع أن ذلك الشيء معدوم فإنه يريد أن يجريه مجرى الموجود، فكان هذا شبيهاً بالإيجاد والإبداع فلأجل هذه المشابهة أطلق لفظ الخلق على التقدير.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن الخلق نفس المخلوق أو غيره فقال جمع من

---

(1) الخالق في (أ) الخلق.
(2) معنى ساقط من (أ).
(3) أن لا يحصل إلى قوله حصر هذا ساقط من (أ).
(4) بمعنى في (أ) من غير معنى.

المتكلمين[1]: الخلق غير المخلوق ويدل عليه وجوه:

الحجة الأولى: أجمعت الأمة على أنه ﷻ خالق، والخالق من كان موصوفاً بالخلق والله ﷻ موصوف بالخلق، وغيره موصوف بالمخلوق باتفاق العقلاء، فعلمنا أن الخلق غير المخلوق.

الحجة الثانية: إذا خطر ببال أحد[2] أن هذا الشيء يمكن أن يوجد ويمكن أن يبقى على العدم يقضي[3] العقل بأنه لا يمكن دخوله في الوجود إلا بإيجاد موجد وتخليق خالق[4]، فإذا قد علمنا وجود المخلوق بالتخليق وحصول المكون بالتكوين والإيجاد، فلو كان الخلق والإيجاد والتكوين عبارات[5] عن وجود المخلوق لكان قولنا: المخلوق إنما وجد لأن الخالق خلقه عائد إلى أن المخلوق إنما وجد لذاته ولأنه مخلوق وذلك يوجب استغناءه عن الخالق[6] ووقوعه بذاته فكل ذلك محال.

الحجة الثالثة: أنا قد نعقل وجود هذا المخلوق وذاته ونعقل وجود ذلك الخالق وذاته مع الشك في كون ذلك الشيء خالقاً لهذا الشيء، وكون هذا الشيء مخلوقاً لذلك الشيء والمشكوك فيه مغاير للمعلوم وكون الشيء خالقاً لذلك الشيء لا بد وأن يكون أمراً زائداً على ذات الخالق وذات المخلوق، وهذا يفيد القطع بأن الخلق[7] غير المخلوق ثم قال جمهور المتكلمين الخلق يمتنع أن يكون مغايراً للمخلوق[8].

ويدل عليه وجوه:

الحجة الأولى: أن الخلق إن كان قديماً لزم من قدمه قدم المخلوق، وإن كان حادثاً افتقر إلى خلق آخر ولزم التسلسل.

الحجة الثانية: أن الخلق كان محدثاً افتقر إلى خالق وإن كان قديماً كان من

---

(1) جمع من المتكلمين في (أ) جميع المتكلمين.
(2) أحد في (ب) العاقل.
(3) يقضي في (ب) قضى.
(4) خالق ساقط في (أ).
(5) عبارات في (ب) عبارة.
(6) الخالق في (ب) الخلق.
(7) الخلق في (ب) الخالق.
(8) للمخلوق في (أ) وهامش (ب) كنسخة ثانية للقدرة.

لوازم ذات البارىء تعالى فلا يكون ثبوته واقعاً بقدرة الباري واختياره، ثم إن الخلق مستلزم لوجود المخلوق لأنه لا يتصور في العقل حصول الخالق مع أنه لا يترتب عليه وجود المخلوق أصلاً إذا ثبت هذا فنقول: ذاته تعالى مستلزم للخلق والخلق مستلزم للمخلوق ومستلزم المستلزم مستلزم، فذات الله تعالى مستلزم لوجود المخلوق، فلا يكون وقوع المخلوق باختيار الله تعالى ومشيئته بل يكون ذاته تعالى موجباً لوقوع المخلوقات وحينئذ يكون ذاته موجباً بالذات لا فاعلاً بالاختيار وهو باطل.

الحجة الثالثة: أن المراد من القدرة الصفة المؤثرة والمراد من الإرادة الصفة المرجحة فإذا حصل مجموع القدرة والإرادة فقد حصل تمام المؤثر وأما وقوع المخلوق فهو الأثر ويمتنع أن يحصل بين المؤثر المستقل التام وبين الأثر واسطة فهاهنا مجموع الإرادة والقدرة وهاهنا الأثر الحاصل منهما، وإذا كان الأمر كذلك بطل القول بأن الخلق صفة زائدة على القدرة والإرادة[1] وهو المطلوب.

الحجة الرابعة: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 190] والذي يمكن جعله آيات ودلائل على أنه سبحانه هو خالق[2] هذه المخلوقات لا الصفة القائمة بذات الله تعالى، فعلمنا أن المراد من قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو هذه المخلوقات وكيفية تقدرها بالصفات المخصوصة بالأحوال المخصوصة له.

المسألة الثالثة: اعلم أن الاستدلال بالسمٰوات على وجود الصانع ﷻ يقع على وجوه:

الأول: الاستدلال بمقادير هذه الأفلاك فإنها مع اشتراكها في طبيعته الفلكية اختص كل واحد منها بثخن معين وضخامة معيّنة، مع أنه لا يمتنع في العقل وقوعه على أزيد من ذلك المقدار أو أنقص منه بذرّة.

فلمّا اختص كل واحد منها بمقداره الخاص مع أن المقادير بأسرها على السوّية، قضى العقل بافتقار هذا المقدار المعين إلى مخصص ومرجح وذلك هو الله سبحانه.

---

(1) والإرادة ساقط من (أ).
(2) خالق ساقط من (أ).

واعلم أن أليق الوجوه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 190] هذا الوجه؛ لأنا ذكرنا أن إطلاق لفظ الخلق على المقدار إطلاق مشهور متعارف.

واعلم أنّا لو ساعدنا على أن لفظ الخلق في اللغة عبارة عن التقدير لكنّا نقول: إنّما صار لفظ الخلق مخصوصاً بفعل الله؛ لأن أفعاله واقعة على وفق علمه ومشيئته من غير زيادة ولا نقصان فلمّا كان هذا المعنى لا يحصل في فعل غير الله لا جرم، لا يصح استعمال لفظ الخلق إلّا في فعل الله.

النوع الثاني: في الاستدلال كون بعض الأفلاك أعلى وبعضها أسفل من بعض، وهذا في الجملة معلوم، إلّا أن أهل علم الهيأة[1] قالوا: أقرب الكواكب إلينا القمر ثم عطارد ثم الزهرة ثم الشمس ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل ثم الكواكب الثابتة.

وذكروا في معرفة[2] هذا الترتيب ثلاثة وجوه:

الأوّل: السّتر[3]: وذلك لأن الكوكب الأسفل إذا مرّ بين أبصارنا وبين الكوكب الأعلى فإنّهما يصيران مثل كوكب واحد في الرؤية ويتميّز الساتر عن المستور بكونه الغالب عليه كصفرة عطارد وبياض الزهرة وحمرة المريخ ودريّة المشتري وكدورة[4] زحل.

ثم إن القدماء وجدوا القمر يكسف الكواكب السيارة[5] وكثيراً من الثوابت التي في طرفيه، في مَمَرّ البروج[6] وكوكب عطارد يكسف الزهرة والزهرة يكسف المريخ والمريخ يكسف المشتري والمشتري يكسف زحل وزحل يكسف الكواكب الثابتة التي تكون في ممرّه؛ فعرفوا هذا الترتيب بهذا الطريق إلّا أنه **بقي الإشكال من وجوه:**

الأول: أنّ الشمس يحتجب[7] في نورها[8] ما هو أعلى منها وما هو أسفل

---

(1) أهل علم: في (ب) علماء أهل.
(2) معرفة: في (ب) معنى.
(3) الستر: في (ب) السترة.
(4) كدورة: في (ب) كمودة.
(5) السيارة: في (أ) الثابتة.
(6) وكوكب: في (أ) كوكب بدون الواو.
(7) يحتجب: في (ب) تحجب.
(8) في نورها: في (أ) في نور.

منها[1]، وحينئذ لا يمكن أن يعلم بهذا الطريق موضع الشمس.

الثاني: هب أن هذه السيارات تكسف الثوابت التي تكون[2] على ممرها لكنها[3] لا تكسف الثوابت التي لا تكون في جانبي القطبين، فلِمَ لا يجوز وجود كرة أخرى تحت كرة القمر تكون هذه الثوابت مركوزة فيها وتكون حركة هذه الكرة مشابهة لحركة كرة الثوابت؟!

وعلى هذا الطريق لا يختلف أوضاع الثوابت ألبتة؛ فلهذه الاعتراضات ظهر ضعف عقولهم في معرفة هذا التّرتيب.

إلّا أن وجه الاستدلال بها على الصانع المختار على جميع الاحتمالات لا يختلف، وذلك لأن كل فلك فإنه يماس بمحدّبه فلكاً آخر فوقه وبمقعره فلكاً آخر تحته، وذلك الفلك متشابهة الأجزاء متشابهة الجوانب فكل ما يصحُّ على أحد جانبيه وجب أن يصح على الجانب الآخر منه؛ فالفلك الفوقاني الذي لقيه بمحدبه يصح أن يلاقيه بمقعره، والفلك التحتاني الذي لقيه بمقعره يصح أن يلاقيه بمحدّبه، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أنّه يصحّ أن يحصل الفلك الأعلى في الأسفل والأسفل في الأعلى، ومتى كانت كل[4] هذه الاحتمالات جائزة امتنع اختصاص كلّ واحد من الأفلاك بحيزه الذي فيه وبموضعه الذي هو فيه إلاّ بتخصيص مخصص وتقدير مقدر وتكوين مكون قادر حكيم عالم وهو الله ﷻ.

النوع الثالث: من الاستدلال بأحوال الفلك: أنّ كلّ كوكب حصل في فلك فإنه حصل في ثغرة معيّنة حصلت في جانب معين[5] من ذلك الفلك ثم إن القوم اتفقوا على أن الفلك بسيط غير مركب والجسم البسيط ما هو الذي تكون له طبيعة واحدة متشابهة.

فلمّا أمكن حصول الثغرة[6] في ذلك الجانب من الفلك أمكن[7] حصوله في سائر جوانب ذلك الفلك، وكما أمكن حصول الاتصال في سائر جوانب الفلك أمكن

---

(1) منها: في (أ) منهما.
(2) تكون: ساقط من (أ).
(3) لكنها إلى قوله في جانبي ساقط من (ب).
(4) كلّ: ساقط من (أ).
(5) معين: ساقط من (أ).
(6) الثغرة: في (ب) نقرة وكذا في فيما يأتي.
(7) أمكن: في (أ) يمكن.

حصوله في ذلك الموضع الذي حصلت الثغرة فيه وإذا ثبت ذلك ظهر أن الاجتماع والافتراق والاتصال الانفصال جائزان[1] على جميع أجزاء الفلك كل واحد منهما بدلاً عن الآخر.

وإذا كان الأمر كذلك، كان حصول الثغرة في أحد جوانب الفلك وحصول الاتصال في سائر جوانب ذلك الفلك أمراً جائزاً فلا يمكن حصوله إلّا لمرجّح ومخصص ومدبر قادر مختار وذلك هو المطلوب.

النوع الرابع: من الاستدلال بأحوال الأفلاك[2] هو أن كل كرة من كرات الأفلاك فإنها تدور على قطبين معينين، وإذا كان الفلك متشابهة الأجزاء كان جميع النقط المفروضة عليها متساوية وجميع الدوائر المفروضة عليها متساوية، فاختصاص النقطتين المعينتين بالقطب دون سائر النقط مع استوائها في الماهية[3] والحقيقة يكون أمراً جائزاً فيقتضي العقل افتقاره[4] إلى المرجح المريد[5] القادر المختار.

النوع الخامس: من الاستدلال أن الأجرام الفلكية مع تشابهها في الجسمية وقبول الأعراض اختص كل واحد منها بنوع معين من الحركة في البطء[6] والسرعة، فانظر إلى الفلك مع نهاية اتساعه وعظمته تدور في كل يوم وليلة دورة تامّة والفلك الثامن الذي[7] هو أصغر منه لا يدور دورة تامة إلّا في ستة وثلاثين ألف سنة على قول القدماء وفي أربعة وعشرين ألف سنة على قول المتأخرين.

ثم الفلك السابع الذي تحته[8] يدور في ثلاثين سنة دورة تامّة، واختصاص الفلك الأعظم بتلك السرعة الشديدة والفلك الثامن بذلك البطء العظيم أمر على خلاف

---

(1) جائزان: في (أ) جائز.
(2) الأفلاك: في (ب) الكواكب.
(3) في الماهية: في (أ) في جميع الماهية.
(4) فيقتضي العقل افتقاره: في (ب) فيقضي العقل بافتقاره.
(5) المريد: في (ب) المدبّر.
(6) في البطء: في (أ) والبطء.
(7) الذي: في (أ) هو الذي.
(8) الذي تحته: في (أ) الذي يدور تحته.

العقل فإنه كان[1] ينبغي أن يكون الأوسع أبطأ حركة والأصغر أسرع حركة فوقوعه على[2] هذا الوجه يدل على أنه بسبب تقدير العزيز العليم القادر الحكيم.

النوع السادس: من الاستدلال أن الفلك الذي يسمونه بالممثل[3] إذا انفصل عنه الفلك[4] الخارج، المركز بقي على مذهبهم منه متممان: أحدهما من الخارج والآخر من الداخل، وإنّه جرم متشابهة الطبيعة ثم اختص أحد جوانب هذا الجسم بغاية الثّخن والآخر بغاية الرّقة، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يكون ذلك الثخن والرقة بالنسبة إلى طبيعة ذلك الجسم على السويّة، فاختصاص أحد الجانبين بالرقة والآخر بالثخن يدل على القادر المختار.

النوع السابع: من الاستدلال أنها مختلفة في جهات الحركات فبعضها من المشرق وبعضها من المغرب وبعضها شمالية وبعضها جنوبيّة مع أن جميع الجهات بالنسبة إليها على السويّة.

فاختصاص كل واحد منها بجهته[5] المعينة لا بد وأن يكون بتخصيص القادر المختار وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40].

النوع الثامن: من الاستدلال أنّا نشاهد هذه الأفلاك الآن متحركة فإما أن يقال أنها كانت متحركة في الأزل أو ما كانت متحركة[6] في الأزل إمّا لأنها ما كانت موجودة في الأزل أو لأنها وإن كانت موجودة في الأزل إلّا أنها ما كانت متحركة في الأزل.

والقسم الأول محال لأن ماهية الحركة عبارة عن الانتقال من حالة إلى حالة[7] أخرى؛ فهذا الانتقال لا محالة يكون مسبوقاً بالمنتقل عنه؛ فحقيقة الحركة تقتضي لماهيّتها أن تكون مسبوقة بالغير، وحقيقة الأزل تنافي المسبوقية بالغير؛ فالجمع بين

(1) كان: ساقط من (أ).
(2) فوقوعه على: في (أ) فوقوع.
(3) بالممثل: في (ب) الحامل.
(4) الفلك: في (ب) ذلك.
(5) بجهته: في (ب) بالجهة.
(6) فأما أن يقال إلى قوله في الأزل إما لأنها ساقط من (أ).
(7) من حالة إلى حالة: في (أ) من حركة إلى حركة.

الحركة وبين الأزل محال.

ولمّا بطل هذا القسم ثبت أنّه لا حركة في الأزل، سواء قلنا: ذوات الأفلاك كانت موجودة في الأزل ساكنة أو قلنا: بأنّها كانت معدومة في الأزل.

وعلى القولين لا بد من الاعتراف بالقادر المختار الحكيم؛ لأنا إن قلنا بأنها كانت موجودة وكانت ساكنة ثم تحركت فيما لا يزال، فلا بد من قادر حكيم مختار يُحركه بعد أن كان ساكناً.

وإن قلنا إنّه كان معدوماً في الأزل فلا بد أيضاً من قادر حكيم مختار يوجده في لا يزال[1] بعد أن كان معدوماً في الأزل، فثبت أن على كلا القسمين لا بدّ من الاعتراف بإثبات إلٰه للعالم قادر مختار[2]، وهذا المأخذ أحسن المآخذ وأقواها وأجلاها.

النوع التاسع: إن حركات هذه الأفلاك إمّا أن تكون من لوازم جسميّتها أو لا تكون كذلك.

والأول باطل؛ لأن كل ما كان من لوازم الشيء امتنع زواله[3] مع بقاء ذلك الشيء؛ لامتناع انفكاك الملزوم عن اللازم، لكنا نرى أنّ جسميّة كل واحد من الأفلاك قد ينفك عن كل واحد من الأجزاء المفترضة[4] في الحركات؛ فإذاً كلُّ واحد من أجزاء تلك الحركات ليس من لوازم جسميّته، وليس أيضاً من لوازم صورته المعيّنة وطبيعته المعيّنة وإلاّ عاد المحال المذكور؛ لأن تلك الطبيعة والصورة باقية في كل واحد من أجزاء تلك الحركة[5]، وكل واحد من أجزاء تلك الحركة غير باقي فإذاً لكل واحد من الأجزاء المفترضة في تلك الحركات مدبر ومقدر يحرك[6] الأفلاك والثوابت والسيارات وهو[7] الله ﷻ.

---

(1) لا يزال: في (أ) الأزل.
(2) بإثبات إلى مختار في (ب) بأن للعالم إلٰهاً قادراً مختاراً.
(3) زواله: ساقط من (أ).
(4) المفترضة: في (ب) المفروضة.
(5) في كل إلى تلك الحركة: ساقط من (ب).
(6) يحرك: في (ب) فمحرك.
(7) وهو: في (ب) هو.

النوع العاشر: أن هذا الترتيب العجيب في تركيب هذه الأفلاك وائتلاف أجزائها واتساق حركاتها نظم موافق لمصلحة هذا العالم لا يتأتّى بالعبث والاتفاق[1] ولا يتأتى من الطبيعة الجاهلة، بل صرايح الأذهان وبداية الأفكار ناطقة بأن ذلك لا يتأتى إلّا من القادر الحكيم إما أنّه[2] لا يعقل إسنادها إلى العبث والجزاف؛ فلأن[3] من جوّز في بناء رفيع وقصر مشيد، أن التراب والماء انضم أحدهما إلى الآخر ثم تولد منها لبنات ثم تركبت اللبنات وتولد من تركبها قصر مشيد وبناء عال، وكل ذلك حصل من غير تدبير مدبّر وتقدير مقدر فإنه يقضي على مجوز هذا بالجنون.

ونحن نعلم أن تركيب هذه الأفلاك وما فيها من الكواكب النيّرة والحركات المختلفة وما حصل لها من البقاء والنقاء والصفاء ليس أقلّ من ذلك البناء؛ فثبت أن القول بوقوع هذه السمٰوات والكواكب على وجه العبث والجزاف محال.

ثم عندها[4] لا يخلو إمّا أن يقال: إنّها تتحرك بأنفسها على سبيل الطبيعة أو على سبيل الاختيار أو لأجل أنّ محركاً يحركها.

والأول باطل لأن كل جسم يتحرك بالطبع عن الشيء فإنه لا يتحرك بعين تلك الطبيعة إلى غير ذلك الشيء؛ لأن المهروب بالطبع لا يكون مطلوباً بالطبع والحركة المستديرة، وكل[5] حركة وقعت هرباً عن نقطة فإن عين ذلك الهرب لا يكون عين طلب تلك النقطة؛ فعلمنا أنّ حركات الأفلاك ليست طبيعيّة وهي أيضاً ليست إراديّة، وذلك أن حركاتها إما أن تكون لغرض ممكن حصوله أو ليس كذلك.

فإن كان الأول لزم وقوف هذه الحركات وانتهاؤها إلى السكون لأن كل حركة كانت لطلب مقصود فعند حصول ذلك المقصود وجب انقطاع تلك الحركة.

وإن كانت تلك الحركة لأجل غرض غير ممكن الحصول كانت تلك الحركة عبثاً والعبث لا يكون دائماً ولا أكثرياً.

---

(1) والاتفاق: ساقط من (أ).
(2) أنّه: في (أ) لأنه.
(3) فلأن: في (أ) لان.
(4) عندها: في (ب) عند هذا.
(5) وكل: في (ب) لكل.

ولمّا بطل القسمان علمنا أن حركاتها ليست إلاّ لأجل أن المدبّر والمقدر القادر الحكيم العالم بالأسرار والخفيّات، المطلع على الكليات والجزيئات يحركها على وفق مشيئته ومقتضى قدرته، وليس عندنا إلاّ الإيمان بها على سبيل الإجمال على ما قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191].

النوع الحادي عشر: من الاستدلال بأحوال السمٰوات[1] أنا نراها مختلفة الألوان مثل نور القمر وصفرة عطارد وبياض الزهرة وضوء الشمس وحمرة المريخ ودريّة المشتري وكمودة زحل ولمعان الثوابت.

وأيضاً فكل كوكب[2] من الكواكب الثابتة مختص بعظم[3] خاص وضوء خاص وجانب خاص من الفلك.

وأيضاً فهي[4] عند المنجمين مختلفة بالسعادة[5] والنحوسة والذكورة والأنوثة والنهارية والليلية، فنرى أن زحل الذي هو سلطان الكواكب أرفع السيارات نحساً، والمشتري وهو أدون منه سعداً، والشمس وهي سلطان الكواكب سعد في بعض الاتصالات نحس في بعضها، ونراها مختلفة في الثبوت[6] والحدود والوجوه[7] والمثلثات والرجوع والاستقامة والصعود والهبوط مع كونها بأسرها مشتركة في كونها أجساماً فلكية شفافة نورانية مصونة عن الكون والفساد والتغير والانحلال؛ فقضى صريح العقل بافتقارها إلى مدبر يدبّرها، قادر يخصص كل واحد منها بصفته المعينة[8].

النوع الثاني عشر: إن هذه الكواكب إن[9] كان لها تأثير في هذا العالم فهي إمّا

---

(1) السمٰوات: في (ب) السمٰوات والأرض.
(2) كوكب: في (ب) واحد.
(3) بعظم: في (ب) بقطر.
(4) فهي: ساقط من (أ).
(5) بالسعادة: في (أ) السعادة.
(6) الثبوت: في (ب) البيوت.
(7) الوجوه: في (أ) الوجود.
(8) يخصص إلى المعينة: في (ب) يحفظ في حالته المعينة وخاصيته المعينة.
(9) إن: في (ب) لو.

أن تكون متدافعة[1] أو متعاونة أو لا متدافعة ولا متعاونة.

فإن كانت متدافعة فإما أن يكون بعضها أقوى من البعض أو متساوية في القوة فإن كان بعضها أقوى من البعض كان القوي غالباً أبداً[2] والضعيف يكون مغلوباً أبداً، فوجب أن يستمر أحوال هذا العالم على طبيعة[3] ذلك الكوكب ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك. **فإن قيل**: لم لا يجوز أن يختلف آثار الكواكب بسب اختلاف طبايع البروج؟

قلنا: لو كانت طبايع البروج مختلفة لكان الفلك جسماً مركباً لا بسيطاً، وقد ثبت عندهم فساد ذلك.

أمّا إن كانت متساوية في القوة مع أنها متدافعة فحينئذ لا يحصل الفعل عن شيء منها أصلاً فتكون الأفعال الظاهرة في هذا العالم مستندة[4] إلى شيء غيرها، فيكون مدبر هذا العالم ذلك الغير لا هذه الكواكب، أمّا إن قيل: هذه الكواكب متعاونة[5] لزم أيضاً بقاء أحوال هذا العالم على نسق واحد من غير تغير أصلاً.

وأمّا إن قيل: إنها تارة متعاونة وتارة متدافعة كان انتقالها من الحبّ إلى البغض ومن الممانعة إلى المعاونة تغيراً يحصل لها في صفاتها، ولا بد لذلك التغير من مغيّر ومدبّر، فتكون الكواكب بأسرها مفتقرة في حصول صفاتها وحدوث أحوالها إلى مدبّر قادر قاهر وذلك هو الله ﷻ.

النوع الثالث عشر: أنّ هذه السمٰوات والكواكب أجسام كل جسم مركب عن الأجزاء؛ لأن كل جسم فهو قابل للقسمة الوهمية، وكل ما قبل القسمة الوهمية كانت ذاته مركبة من تلك الأجزاء التي كل واحد منها متميز على الآخر في الإشارة الحسيّة، وكلُّ ما كان مركباً فإنه مفتقر في الحقيقة[6] إلى كل واحد من أجزائه، وكلّ واحد من أجزاء الشيء غيره، فكل مركب مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره فهو مُمكن لذاته، وكل مُمكن لذاته فهو محتاج إلى المؤثر. وكل ما احتاج في وجوده إلى المؤثر

---

(1) متدافعة: في (أ) مدافعة.
(2) أبداً: ساقط من (أ).
(3) طبيعة: في (أ) طبعه.
(4) مستندة: في (أ) مستنداً.
(5) متعاونة: في (ب) متفاوتة.
(6) الحقيقة في (ب) تحقيقه.

فاحتياجه[1] إليه إما أن يكون حال بقائه أو حال حدوثه أو حال عدمه.

ويمتنع أن يحتاج إلى الموجد حال بقائه لأن ذلك يقتضي إيجاد الموجود وتحصيل الحاصل وهو محال، فلم يبق إلّا أن تكون الحاجة إما زمن الحدوث أو زمن العدم، وعلى كلا التقديرين كان كل محتاج إلى المؤثر محدثاً؛ فثبت أن الكواكب والسمٰوات بأسرها ممكنة الوجود لذواتها، محتاجة في وجودها إلى المؤثر؛ فحدوثها مسبوق بالعدم[2].

النوع الرابع عشر: في الاستدلال بسرعة هذه الكواكب مع غاية عظمها وذلك لأن أصغر كوكب يرى هو مثل الأرض ثماني مرات[3] و أكبرها ينتهي إلى مائة[4] وعشرين مرة مثل الأرض.

وأمّا **الشمس** فهي مثل الأرض مائة وأربعة وستين مرة، فإنك ترى الكوكب يطلع في لحظة يسيرة، وذلك لأن الزمان من[5] طلوع أول جزء من الكوكب إلى تمامه يسير، وذلك الكوكب مثل الأرض مائة وعشرين مرة، فقد دار الفلك في تلك اللحظة اللطيفة مثل الأرض مائة وعشرين مرة.

وانظر كيف عبّر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبيّ ﷺ: «**هل زالت الشمس؟**» فقال: لا، نعم. فقال له رسول الله ﷺ: «**كيف تقول: لا، نعم؟**» فقال له: من حيث قلت: لا إلى أن قلت: نعم، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام، فانظر إلى عظم جرمها[6] ثم إلى خفّة حركتها ثم انتقل منها إلى قدرة فاطرها وبارئها كيف خلقها على عظم جرمها ثم حركها هذه الحركة الخفيفة السريعة ثم أمسكها في الهواء بغير عمد ترونها.

النوع الخامس عشر: في الاستدلال بهذه الأجسام، اعلم[7] أن الأجسام متساوية

---

(1) فاحتياجه: في (أ) واحتياجه.
(2) فحدوثها مسبوق بالعدم: في (ب) فكانت محدثة مسبوقة بالعدم.
(3) ثماني مرات: في (ب) (16 مرة).
(4) إلى مائة: في (ب) إلى قريب من مائة.
(5) الزمان من: في (أ) بين.
(6) جرمها: في (ب) جسمها.
(7) اعلم في (ب) على.

في الجسمية بدليل أنه يصح تقسيم الجسم إلى الفلكي وإلى[1] العنصري وإلى الكثيف وإلى اللطيف، وإلى الحار وإلى البارد وإلى الرطب وإلى اليابس، ومورد التقسيم مشترك بين كل هذه[2] الأقسام، فالجسمية قدر مشترك بين كل هذه الأقسام والأمور المتماثلة في تمام الماهية تكون متساوية في قبول الصفات والأعراض. فإذا ثبت أن كل ما صح على جسم فهو صحيح على سائر الأجسام فإذاً اختصاص كل جرم على ما هو مختص به في المقدار والوضع والشكل والطبع لا بد أن يكون من الجائزات وذلك يقضي[3] عليها بالافتقار إلى الصانع القديم الحكيم المختار جل جلاله وتقدست أسماؤه ولا إله غيره فهذه هي الوجوه التي وصلت عقولنا الضعيفة إليها وهي بأسرها داخلة تحت قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾.

(1) وإلى ساقط من (أ).
(2) (هذه) ساقط من (أ).
(3) (يقضي) في (أ) يقتضي.

الفصل الرابع:
في تعديد[1] صفات السموات والاستدلال بكل واحد من تلك الصفات على وجود الإله القادر الحكيم.

الصفة الأولى: بقاؤها في جو الهواء معلقة[2]، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: 41] أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه ﷻ هو الذي يمسك السموات والأرض عن الزوال والانتقال، فنحتاج أولاً إلى بيان أن السموات والأرض غير زائلة عن موضعها ومقارها، ثم إلى بيان أن ذلك الممسك هو الله تعالى فلنبين ذلك في الأرض ثم في السماء، أما في الأرض فمن الناس من قال أنها هاوية بطبعها أبداً في الخلاء الذي لا نهاية له من جهة السفل، ومنهم من قال الفلك واقف والأرض هي التي تتحرك كل يوم وليلة دورة تامة وسبب طلوع الشمس والقمر والكواكب هو استدارة الأرض والذي يدل على أنها ليست[3] كذلك أنها إن كانت كذلك لكان من طفر من موضع عال إلى الأرض وجب أن لا يصل إليها لأن كل شيئين ينزلان من الأعلى إلى الأسفل وأحدهما أخف من الآخر فإن الأخف لا يدرك الأسفل وإنما قلنا أنها غير مستديرة لأنها لو كانت كذلك مستديرة[4] لكانت حركتها في غاية السرعة فكان[5] يتموّج الهواء المحيط بها تموّجاً شديداً، فكان يجب أن يكون تموج ذلك الهواء مانعاً للإنسان من أن يتحرك إلى خلاف تلك الجهة ومعلوم أن ذلك باطل ولما بطل هذان القسمان ثبت أن الأرض واقفة. وأما السموات فهي أيضاً مستقرة في أحيازها وغير خارجة عنها والدليل عليه

---

(1) تعديد في (أ) تقدير.
(2) معلقة في (أ) متعلقة.
(3) ليست إلخ في (ب) (غير هابطة).
(4) مستديرة ساقط من (ب).
(5) فكان ساقط من (أ).

أنها لو خرجت عن موضعها فإما أن ينزل أو يصعد فإن نزلت مع أن الأرض واقفة صارت السماء كل يوم أقرب إلينا فكان يجب أن نرى كل يوم تلك الكواكب أعظم، وأن نرى من السماء أقل ما رأيناه بالأمس فإن قلنا أن السماء يصعد لزم ضد ما ذكرناه ولما كان كل ذلك باطلاً علمنا أن السمٰوات والأرضين مستقرة في مواضعها مستمرة في أحيازها. إذا ثبت هذا القول فنقول ممسكها هو الله تعالى: أما الأرض فنقول للناس في سبب سكونها:

(الأول): أن الأرض لا نهاية لها من جانب السفل وإذا كان كذلك لم يكن لها مهبط فلا جرم لا ينزل[1] وهذا فاسد من وجهين: الأول: ثبت بالدلائل[2] أن الأجسام متناهية. الثاني: أن الأرض طبيعتها واحدة فاختصاص أحد وجهيها بالتناهي والوجه الآخر بعدم التناهي لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر قادر.

(القول الثاني): قول من سلم أن الأرض متناهية من جميع الجوانب والقائلون بهذا القول ذكروا في سبب سكون الأرض وجوهاً:

الأول: قالوا الأرض كنصف كرة وحدبتها[3] على الجانب الذي يلينا، وأما سطحها الأسفل فهو سطح مستقيم موضوع على الماء والهواء ومن شأن المنهبط أن لا يغوص في الماء بل يبقى واقفاً عليه **وهذا باطل من وجهين:**

الأول: أن البحث[4] يعود في علة وقوف الماء والهواء تحت الأرض.

الثاني: لِم صار أحد وجهي الأرض منحدباً[5].

والثاني: مستقيماً مع تساوي الماهية بل[6] لا يعقل هذا إلا بسبب الفاعل المختار.

---

(1) لا ينزل في (ب) لم تنزل.
(2) بالدلائل في (ب) بالدليل.
(3) وحدبتها في (أ) وتحديبها.
(4) البحث في (ب) التحت.
(5) منحدباً في (ب) محدباً.
(6) بل لا في (ب) فلا.

(القول الثالث): الذين قالوا أن سبب وقوف الأرض جذب الفلك لها من كل جانب[1] فبقيت في الوسط وهذا أيضاً باطل من وجهين:

الأول: أن المدرة[2] التي على وجه الأرض أقرب إلى هذا الجانب من الفلك فوجب أن ينجذب إلى هذا الجانب من الفلك.

الثاني: أن المدرة المقذوفة إلى فوق وجب أن تنجذب إلى الفلك وأن لا يعود.

(القول الرابع): سبب وقوف الأرض دفع الفلك لها من كل جانب[3] كما إذا جعل كف من التراب في قنينة ثم أديرت القنينة على قطبها[4] إدارة سريعة وقف التراب في وسط القنينة لتساوي الدفع من كل الجوانب وهذا باطل أيضاً من وجوه خمسة:

الأول: لو بلغ قوة الدفع إلى هذا الحد فلم لا يحس بها الواحد منّا؟

الثاني: ما بال هذا الدفع لم يجعل[5] حركة السحاب والرياح إلى جهة ما بعينها؟

الثالث: ما بال هذا الدفع لم يجعل انتقالنا[6] إلى الجهة[7] الموافقة لحركة الفلك فإنه أسهل وضد تلك الحركة أصعب.

الرابع: يجب أن يكون الثقل كلما كان أعظم أن تكون حركته أبطأ لأن اندفاع المدفوع الأعظم من اندفاع الأصغر[8]، أبطأ.

الخامس: يجب أن تكون حركة الثقيل النازل من الاندفاع أسرع[9] منها عند الانتهاء لأنها عند الابتداء أبعد من الفلك وأبعد من تأثيره.

(القول الخامس): الأرض تطلب الوسط من الفلك بالطبع وهو قول

---

(1) جانب في (ب) الجوانب.
(2) المدرة في (أ) المقدرة.
(3) جانب في (ب) الجوانب.
(4) قطبها في (أ) قطريها.
(5) يجعل في (أ) يحصل كذا في ما بعده.
(6) انتقالنا في (أ) انتقالها.
(7) الجهة في (أ) جهة.
(8) الأصغر في (أ) الفاسد.
(9) أسرع ساقط من (أ).

أرسطاطاليس وهو ضعيف لأن الأجسام متساوية فاختصاص بعضها بالصفة التي لأجلها تطلب وسط العالم يكون أمراً جائزاً فيحتاج إلى تخصيص الفاعل المختار.

(القول السادس): الفلك كرة فإذا استدار على ما في حشوه عرض لما هو في غاية القرب من الفلك أن ينسخن فيصير ناراً ولما هو في غاية البعد عن الفلك أن يبقى على البرد والكثافة واليُبس فيكون أرضياً[1] ثم الذي يقرب من النار يكون لا محالة ألطف مما يقرب من الأرض فصار الملاصق للنار هواء والملاصق للأرض ماء، فلهذا السبب حصلت العناصر على هذا الترتيب وهذا أيضاً ضعيف لأن الكلام يعود في أنه لم حصل[2] بعض الأجسام ملاصقاً للفلك وبعضها في غاية البعد عن الفلك حتى صار القريب ناراً والبعيد أرضاً.

(القول السابع): قالت المعتزلة: النصف الأسفل من الأرض فيه اعتمادات صاعدة والنصف الأعلى فيه اعتمادات هابطة، فحصل التدافع بين الاعتمادين[3] المتضادين فلزم الوقوف وهذا أيضاً ضعيف[4] من وجهين لأنا نقول: ولم اختص ذلك الوجه بالاعتماد الصاعد وهذا الوجه بالاعتماد النازل؟ وهذا[5] لا يمكن[6] أن يذكر فيه سبب إلا الفاعل المختار، ولما بطلت هذه الأقاويل لم يبق إلا أن يقال بقاء الأرض والسمٰوات في مواضعها أو مقارها وأحيازها ليس إلا بالله سبحانه فثبت أن ممسك السمٰوات والأرضين[7] هو الله سبحانه.

وتقرير الكلام على الوجه البرهاني يعود إلى ما تقدم من أن الأجسام متساوية في الجسمية فاختصاص[8] كل واحد منها بحيز[9] مخصوص لا يمكن أن يكون لذواتها ولا لشيء من لوازم ذواتها وإلا لزم التشابه[10] بل لا بد أن يكون أمراً جائزاً فيكون

---

(1) أرضياً في (أ) أرضاً.
(2) حصل في (ب) جعل.
(3) الاعتمادين في (ب) الاعتمادات.
(4) ضعيف في (ب) باطل.
(5) (وهذا) ساقط من (ب) ألا يمكن.
(6) في نسخة (ب) لم يمكن.
(7) الأرضين في (ب) الأرض.
(8) فاختصاص في (ب) واختصاص.
(9) بحيز في (ب) بحدّ.
(10) التشابه في (أ) التسلسل.

بتخصيص المخصص الذي هو القادر المقتدر المختار فصار قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ مؤكداً بهذه البراهين العقلية القطعية، إذا عرفت هذا البرهان فلنرجع إلى البيان الإقناعي الذي يصل إليه كل فهم فنقول: لا شك أنّ السماء فوق الهواء، وهو محسوس[1]، ولا شك أن الأرض فوق الماء بدليل أنك لا تحفر موضعاً إلّا خرج عنه الماء، وألطفُ الأجسام المشاهدة هو الهواء وبعده الماء ثم إن الأرض مع ما فيها من الأجسام الثقيلة كالبحار والجبال موضوعة على الماء.

وأيضاً لا شك أن كل واحد من النجوم أعظم من الأرض بدرجات وأثقل منها بكثير؛ فإذا شاهدنا أن أصغر جزء من الأرض لا يستقر على وجه[2] ثم علمنا أن كل الأرض مستقرة على وجه الماء علمنا أن ذلك لا يكون إلّا بإمساك الله تعالى.

ثم إن الهواء ألطف من الماء، ولا يستقر فيه أصغر الأجزاء الثقيلة[3].

ثم إن السمٰوات والكواكب مع ما فيها من الثقل العظيم والعظمة العظيمة، استقرت في الهواء؛ [فعلمنا][4] أن ذلك لا يكون إلا بإمساك الله ﷻ؛ فظهر[5] أنه ليس استقرار الأرض في حيزها واستقرار السمٰوات في موضعها إلّا بتقدير قادر مقتدر وعلم عالم وحكمة حكيم، قادر قاهر، هو أقدر القادرين وأحكم الحاكمين، تنزّهت عظمته من علائق العقول البشرية، وتقدس جلاله[6] وكبرياؤه عن حوادث الأفكار الإنسانية.

بقي ههنا سؤالات[7]:

السؤال الأول: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: 41] وهي كقوله: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: 23] أي ما أنت إلّا نذير.

---

(1) محسوس: في (أ) المحسوس.
(2) وجه: ساقط من (أ).
(3) الأجزاء: في (أ) أجزاء.
(4) [فعلمنا]: في الأصلين علمنا.
(5) فظهر: في (ب) فعلمنا.
(6) تقدس جلاله: في (ب) تقدست جلالته.
(7) بقي هنا إلى قوله: الصفة الخامسة إلخ ساقط من (ب).

السؤال الثاني: ما الفائدة في قوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ وهما لا يزولان إلى يوم القيامة.

والجواب من وجوه:

الأول: عدم الوقوع لا ينافي صدق قولنا: لو وقع كيف يكون كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22].

الثاني: لو زالتا حين حكمت بالزوال يوم القيامة فمن الذي يمسكها عن ذلك الزوال غيري؟

الثالث: لو زالتا بسبب كفرهم وقولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم: 88] على مقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: 90-91].

السؤال الثالث: ما الحكمة في ختم هذه الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

والجواب يحتمل أن يكون تقدير الآية: ولئن زالتا وحلّ العذاب باستعجاله فمن المانع لولا أن الله حليم غفور.

الصفة الثانية للسماوات الرفعة: قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2] وتقدير المعنى أن جميع العالمين عاجزون عن رفع شيء ثقيل في الهواء إلّا بأحد طريقين:

إمّا أن يكون تحته شيء يستقر عليه، أو يكون فوقه شيء يكون هو معلقاً به، ولا شكَ أن العالم متناه من فوقه وتحته فليس لجميع الأجسام شيء فوقه حتى يكون شيئاً معلقاً، وليس تحت جميع الأجسام جسم حتى يستقر عليه: فإذا عجز كل الخلائق عن رفع شيء ثقيل إلّا بأحد هذين الطريقين، وثبت أن كل العالم بما فيه من العرش والكرسي والسمٰوات والكواكب والبحار والجبال معلقة من غير علاقة فوقها، ولا قرار تحتها لم يكن بدّ من الإقرار بقادر ممسك أقوى من جميع هذه الأجسام وأقدر منها حتى يمسكها بقدرته ويحفظها بإلٰهيته، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين، وفي الآية سؤالات:

السؤال الأوّل: أنه تعالى قال: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ وهذا يوهم أن هناك عمداً لا ترونها.

والجواب عنه من وجوه:

الأوّل: لو قال بغير عمد لكان خطأ، بل لذلك عمد وهو إمساك الله ﷻ كما قال: ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾؛ لأن إمساك الله وحفظه عمد لا ترى: فلهذا السبب قال: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

الثاني: قال في صفة العرش: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾، فههنا يحتمل أن تكون للسمٰوات ملائكة يحملونها فإذا كان هذا محتملاً فلا جرم ما نفى العمد مطلقاً بل نفى عمداً مشاهداً يرى.

وإن نسبنا[1] حمل العرش والسمٰوات إلى الملائكة، فمن الذي يحمل الملائكة الحاملين مع هذا الحمل العظيم إلّا قدرة الأحد الصّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

السؤال الثاني: الرفع يشعر بأنها كانت موضوعة في السفل فنقلها الله تعالى، فهذا الأمر كذلك.

الجواب من لفظ الرفع في هذه الآية قولان:

أحدهما: أنه عبارة عن الإنشاء على صفة الارتفاع، لا أنها كانت موضوعة فرفعها، نظيره قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [الرحمٰن: 10] أي خلقها موضوعة للأنام، لا أنها كانت مرفوعة [ثم جعلها][2] موضوعة.

القول الثاني: أن السمٰوات والأرض كانتا رتقاً، شيئاً واحداً ففتق الله بينهما ورفع السماء على ما شرحناه والله أعلم.

الصفة الثالثة للسماوات: قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: 67] ولمّا آل الأمر إلى آدم ﷺ قال لإبليس: ﴿مَا

(1) وإن نسبنا: في الأصل (إلا وأن نسبنا).
(2) [ثم جعلها] زيادة يقتضيها السياق.

مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ﴾ [ص: 75] فالسمٰوات في آخر الأمر تكون في يمين الله سبحانه، وآدم عليه السلام في أول الأمر كان مخلوقاً بيديه، وهذا يشير إلى [أنّ][1] ما هو نهاية حال السمٰوات فهو بداية حال البشر.

الصفة الرابعة: كون هذه السمٰوات مخلوقة بالحق لا بالباطل قال ﷻ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران: 191] وقال أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: 27] وقال في حق البشر: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: 115] ثم بيّن أن الحكمة في خلق السمٰوات والأرض أكبر وأعظم من الحكمة في خلق الناس: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: 57].

واعلم أنه ليس المُراد من هذا الكِبَرُ الكِبَرُ في الجثة، لأن ذلك معلوم لكل أحد بالحسّ والضرورة، ولكن المراد عن ذلك الكبرُ في أسرار الإلٰهية والحكمة الربانية التي لا يعرفها أحد إلّا هو، ولا يطلع عليه أحد إلّا هو.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: 27 ـ 29] واعلم أنه[2] سبحانه وتعالى وصف السماء في هذه الآية بصفات كثيرة، إحداها شدة الخلق، ونظيره قوله تعالى في سورة [النبإ]:[3] ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبإ: 12] والشداد جمع [شديدة][4] بمعنى محكمة، قوية الخلق، لا يؤثر فيها مرور الزمان ولا يحصل فيها فطور ولا فروج.

فإن قيل: فالملائكة كيف ينزلون من السمٰوات مع شدّة خلقها؟ وكيف يعرجون فيها؟

قلنا: كما ينزل الأنوار منها مع شدتها، بل نزول الملائكة أولى لأن ذوات الملائكة بالنسبة إلى هذه الأنوار المحسوسة يجري مجرى هذه الأنوار المحسوسة بالنسبة إلى هذه الأجسام.

---

(1) [إنّ] زيادة يقتضيها السياق.

(2) واعلم إلى قوله فإن قيل: إنما سمي الشيء بناء ساقط من (ب).

(3) [النبأ] في الأصل: عم يتساءلون.

(4) [شديدة] في الأصل: شديد.

وفي لفظ الآية إشكال، قال الكسائي والفراء والزجاج: الكلام تمَّ عند قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ثم قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ ابتداء كلام آخر.

وعند غيرهم الوقف على قوله بناها لأنه من صلة السماء، والتقدير: السماء التي بناها، فحذف (التي)، ومثل هذا الحذف جائز كثير في اللغة.

فنقول: الدليل على أن قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ صلة لما قبله، [أنه][1] لو لم يكن صلة لكان صفة ثم قوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ صفة أيضاً، فقد توالت صفتان لا تتعلق إحداهما بالأخرى فكان يجب إدخال العاطف بينهما كما في قوله: ﴿وَأَغْطَشَ﴾، فلمّا لم يكن كذلك علمنا أنّ قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ صلة للسماء ثم قوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ ابتداء بذكر الصفة.

واعلم أن قوله تعالى في السماء أنه بناها نظيره قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق: 6] وقوله في أول سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: 22].

فإن قيل: إنما سمّي الشيء بناءً إذا كان مستقراً على الأرض والسماء وقد أمسكها الله تعالى، وجعلها[2] معلقة في الجوّ فكيف سمّاها بناء؟

قلنا: هذا مذكور على سبيل التشبيه[3] وذلك لأن أعظم الأجسام إحكاماً في البنية والتركيب[4] هو الذي يكون موضوعاً على الأرض فكأنّه قال: هذا الذي أمسكته[5] في الهواء أكبر إحكاماً وشدّةً مما بنيته على الأرض[6] فلشدة إحكامه سمّاه[7] بناء.

واعلم أنه ﷻ كما بيّن في السماء أنه بناها بيّن بعد ذلك أنه تعالى جعل السماء علة للمكان وعلة للزمان. أما أن السماء سبب[8] للمكان فقوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا

---

(1) [أنه] في الأصل: لأنّه.
(2) وجعلها ساقط من (ب).
(3) التشبيه: في (ب) الشبه.
(4) والتركيب: في (ب) والترتيب.
(5) أمسكته: في (أ) أسكنته.
(6) الأرض في (أ) الأرض والمستقر.
(7) سماه في (ب) سمى.
(8) سبب في (ب) علة.

﴿فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: 28] واعلم أن امتداد الشيء إذا أخذ من أعلاه إلى أسفله سمي عمقاً وإن أخذ من أسفله إلى أعلاه سمي سمكاً فالمراد برفع سمكها شدة علوها حتى ذكروا أن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وأما قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فقيل المراد به تسوية تأليفها[1] وقيل المراد نفي التفاوت عنها كقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: 3] واعلم أن كل هذه الوجوه تدل على كمال العلم والقدرة لمدبرها وخالقها لأن وقوع التفاوت تارة يكون لجهل المدبر وتارة يكون لعجزه، فمن كان عالماً بالكل قادراً على الكل امتنع وقوع التفاوت في مخلوقاته فبهذا الطريق عرفنا أنه صادق في وعده حكيم لا يقع السفه في فعله لأن صدور الكذب والسفه إما للعجز أو للجهل أو للبخل[2] والكل محال عليه تعالى[3] الله عن ذلك ،فامتنع الكذب في وعده والسفه في فعله. وأما أن تخليق السمٰوات سبب لحدوث الزمان فهو المراد من قوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: 29] واعلم أن أغطش قد يجيء لازماً يقال: أغطش الليل أي صار مظلماً، ويجيء متعدياً يقال: أغطشه الله إذا جعله مظلماً، والغطش الظلمة والأغطش، أفعل منه[4] مثل الأعمش،وهاهنا سؤال وهو أن الليل اسم لزمان الظلمة الحاصلة بسبب غروب الشمس فقوله ﷻ: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ يرجع معناه إلى أنه جعل المظلم مظلماً وهذا الكلام بعيد[5]. والجواب معناه أن الظلمة الحاصلة في ذلك الزمان إنما حصلت بتدبير الله تعالى وبتقديره وأما قوله: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ فالمُراد به[6] النهار إلا أنه سبحانه عبَّر عن النهار بالضحى لأن الضحى أضوأ أوقات النهار ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: 1 ـ 2] وذلك لأن أضوأ أوقات النهار هو الضحى وهو الضوء التام[7] بعد الظلمة التامة مما لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى.

---

(1) تأليفها في (أ) تألفها.
(2) أو للبخل في (ب) والبخل.
(3) تعالى الله عن ذلك ساقط من (ب).
(4) والأغطش أفعل منه مثل الأعمش في (ب) والأغطش شبه الأعمش.
(5) وهذا الكلام بعيد في (ب) وهو الكلام بعينه.
(6) (به) في (ب) هو.
(7) التام في (أ) القائم.

واعلم أن في الآية فوائد:

أحدهما: أنه ﷻ قدم ذكر الظلمة على ذكر النور وهذا يدل على تقدم الظلمة على النور وهو نظير قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1].

الثانية: أنه أضاف الليل والنهار إلى السماء لأنهما[1] إنّما يحدثان سبب غروب الشمس وطلوعها والغروب والطلوع لا يحصلان إلا بسبب حركة الفلك فلهذا السبب أضاف الليل والنهار إلى السماء.

الثالثة[2]: في هذه الآية أن المقصود منها الاستدلال بها على وجود الخالق سبحانه والتقدير أن السماء أشد خلقاً من الآدمي وقد أقررتم على أن خالق السماء هو الله سبحانه فكيف أنكرتم أن مدبر أحوالكم غير الله؟

الرابعة: أن إثبات المعاد أيضاً مقصود من هذه الآية وسياق الآية يدل عليه قال الله تعالى فيما قبل هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النازعات: 6 ـ 7] إلى قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧﴾ [النازعات: 27].

والمعنى أنكم أنكرتم البعث واستبعدتم إعادة خلقكم بعد موتكم والإعادة عندكم أيسر من الابتداء والاختراع وابتداء خلقكم أيسر من ابتداء خلق السماء، فلما أقررتم بأنه تعالى هو الذي خلق السمٰوات فلأن تعرفوا كونه قادراً على الإعادة والبعث أولى.

(الفائدة الخامسة) كأنه قال: السماء مع شدة خلقها وعظمتها وكذلك الأرض بجبالها وبحارها مطيعة لحكمي وأمري فكيف عصيتم حكمي وخالفتم أمري مع أنكم في غاية الضعف، بل نقول: أنتم والسماء مشتركون في أن كل واحد منكم حصل بإيجادي وإبداعي وأنتم إنما فارقتم السماء والأرض بالمعرفة والتمييز والإقرار بحصول الثواب والعقاب فأنتم بسبب هذه المعرفة أولى بالانقياد لطاعتي.

(الفائدة السادسة) أني لما رفعت السماء من الأرض خلقت المكان لأن المكان هو الفرجة الحاصلة بين السماء والأرض وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا

---

(1) إنما ساقط من (أ).

(2) الثالثة من هنا إلى قوله السادسة أني لما رفعت إلخ ساقط من (ب).

﴿٢٩﴾ ولما حركت جرم السمٰوات أظهرت الزمان وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ فالمكان والمكانيّات ملكي والزمان والزمانيات ملكي ونظيره قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعام: 12] وهو إشارة إلى أن المكان والكائنات مِلكه ومُلكه ثم قال: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 13] وهو إشارة أن الزمان والزمانيات مِلكه ومُلكه فهو ﷻ خالق المكان والمكانيات ومدبر الزمان والزمانيات وذلك يدل على كونه منزهًا عن الزمان والمكان وعلائق الحدود والإمكان[1].

(الصفة السادسة) للسماوات: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: 32] وأيضاً سماها الله بالسقف المرفوع قال تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ [الطور: 4 ـ 5].

واعلم أن من تأمل في هذا[2] العالم وجده كالبيت الذي أعد فيه كل ما يحتاج إليه فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة كالبساط والنجوم منصوبة[3] كالمصابيح والإنسان كمالك البيت المتصرف فيه وضروب النبات مهيآت لمنافعه، وضروب الحيوانات مصرفة في مصالحه وهذه أحوال واضحة ودلائل باهرة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل وتقدير شامل وحكمة بالغة وقدرة غير متناهية ومما يشبه هذا الوصف أنه تعالى سماها سبعاً طباقاً وسبعاً شداداً.

(الصفة السابعة) أنه تعالى جعلها قبلة الدعاء قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾ [البقرة: 144] فقوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إشارة إلى تضرعه حال اشتغاله بالدعاء والمجسمة تمسكوا بذلك على أنه ﷻ في جهة فوق وهذا باطل على ما سيجيء برهانه إن شاء الله تعالى بل السبب لذلك وجوه:

الأول: أنه تعالى جعل أحوال الأفلاك أسباباً لمصالح أحوال هذا العالم قال تعالى حكاية عن فرعون ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: 36 - 37]

(1) وعلائق والحدوث والإمكان في (ب) أورد: قبل وذلك يدل.
(2) في ساقط من (ب).
(3) منصوبة في (ب) منضودة.

وقال أيضاً: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: 15] ومن الدعوات المشهورة قولهم: يا مسبب الأسباب، ويؤكد ذلك قوله تعالى في صلة الملائكة: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: 5] وفي آية أخرى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝١﴾ ولا شك أن مسكن الملائكة هو السمٰوات فلهذه الوجوه صارت أحوال السمٰوات أسباب مصالح هذا العالم.

الثاني: أن الأرزاق إنّما تنزل من السماء قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 22].

الثالث: أن الملائكة الذين ينزلون بالسلام والرحمة من الله إنما ينزلون من السمٰوات قال الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: 4].

الرابع: أن الأنوار إنما تنزل من السمٰوات قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5] فلما كان كل مصالح العالم لا يتم إلا من السمٰوات لا جرم كانت الأعين ممتدة إليه والأيدي مرفوعة إليه والقلوب متعلقة به، والله أعلم.

الفصل الخامس:
في تفسير كونه تعالى فاطر السموات والأرض[1]

حكى ﷻ عن إبراهيم الخليل عليه السلام قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 79] وحكى[2] عن يوسف الصديق عليه السلام أنه قال: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [يوسف: 101] وقال سبحانه في أول الملائكة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 1] وقال في خلق البشر: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30] واعلم أن الفاطر هو الذي يحدث الشيء ابتداء وتحقيقه أن الفطور هو الشقّ فمن أحدث شيئاً ابتداء فهو الذي شق ظلمة العدم.

واعلم أن فعل الله سبحانه وتكوينه مغاير فعل غيره من وجوه:

الأول: أن الإنسان لا يمكنه أن يفعل إلا في محل مخصوص ومادة معينة، فالحدّاد لا بد له من حديد، والصائغ لا بد له من ذهب، والحائك لا بد له من غزل، والحق سبحانه في فعله غني عن المادة وذلك لأن تلك المادة لما كانت قابلة للأحوال المتغيرة والحوادث المتعاقبة كانت محدثة؛ فلا بدّ لها من محدث؛ فلو افتقر إحداث الله وإيجاده إلى سبق مادة لزم افتقار المادة إلى مادة أخرى إلى ما لا نهاية له وهو في حق الله تعالى محال.

فلمّا كان ﷻ هو القادر الفاعل للمواد والموجد لها [دلّ][3] ذلك على أن [فاعليته غنية][4] عن سبق المواد.

الثاني: أنّ العباد إذا تصرفوا في مادة فهم لا يتصرفون في ذات تلك المادّة؛

---

(1) الفصل إلخ هذا العنوان ساقط من (ب).
(2) وحكى عن يوسف من هنا إلى قوله تعالى كيف تكفرون إلخ ساقط من (ب).
(3) [دلّ]: زيادة يقتضيها السياق.
(4) [فاعليته غنية] في الأصل: فاعله غنى.

فالنجّار يتصرف في الخشب، ولكن الخشب باق في حال ذلك التصرف، والصائغ يتصرف في الذهب ولكن الذهب باق في تلك الحالة.

أمّا الحق جلّ جلاله فإنه يتصرّف في المواد ويغيرها في أنفسها، ألا ترى أن الله يقلب الطين غذاء، ويقلب الغذاء نطفة، ويقلب النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً.

وأيضاً خلق البشر من التراب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59] فركّب من التراب لحماً ودماً، وصورة التراب غير باقية في شيء منها. ويخلق الحيوان من الماء كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: 45] وصورة المائيّة غير باقية فيها، وخلق عيسى عليه السلام من نفخ جبريل عليه السلام؛ ولذلك كان عيسى عليه السلام يصور الحيوانات، وينفخ فيها فتصير حيّةً، وصورة الهوائية ما كانت باقية فيها.

وخلق الجان من مارج من نار، وصورة النار غير باقية فيها، وخلق ناقة صالح من الحجارة وصورة الحجريّة غير باقية، وخلق الثعبان من عصى موسى وصورة الخشبيّة غير باقية، وخلق حواء من ضلع آدم عليه السلام وما كانت صورة العظميّة باقيةً.

فثبت أنه ﷻ يقلب المواد عن ذواتها من حالة إلى أخرى وسائر الفاعلين ليسوا كذلك فظهر الفرق.

والفرق الثالث: أن كل الفاعلين يفتقرون في فاعليتهم إلى توسط الآلات؛ فالنجار لا بد له من منشار وقدوم، والخياط لا بد له من إبرة ومقراض، والحق ﷻ غنيّ عن الآلات والأدوات؛ لأنه فاعل الآلات والأدوات، فلو افتقرت فاعليته إلى الآلة لزم التسلسل.

والفرق الرابع: أنّ سائر الفاعلين لا يمكنهم أن يفعلوا فعلاً إلّا بمماسة وملاقاة بين الفاعل وبين محل الفعل، فإن لم تحصل المماسة أصلاً عجز عن الفعل فيه والحق ﷻ هو المتصرّف في العرش إلى ما تحت الثرى من غير مماسة ولا مجاورة ولا مقاربة.

والفرق الخامس: أنّ كل من فعل فعلاً فإنه لا يفعله إلّا بمهلة وتدريج، وزمان

بعد زمان، والحق ﷻ غني عن المهلة والزمان كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: 40] وقال أيضاً: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: 77] والمعنى أني أميتهم عند النفخة الأولى في أقل من لمحة البصر وأحييهم عند النفخة الثانية في أقل من لمح البصر، وأردُّ في هذه اللحظة اللطيفة جميع الأرواح إلى أشباحها الأصليّة من غير غلط ولا خلل، وإنما أمكن ذلك لكونه تعالى قادراً على جميع المقدورات عالماً بجميع المعلومات.

الفرق السادس: أنّ كل من فعل فعلاً فإنه يتعب بسبب ذلك ويشق عليه، والحق ﷻ يدبِّر مِن العرش إلى ما تحت الثرى في تخليق ذواتها وإيجاد صفاتها مِن غير تعب ولا نَصب قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: 38] وقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: 15].

فإن قيل: أليس إنه تعالى قال في الإعادة: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27][1]، وهذا يقتضي نوعاً من التعب في الخلق الأوّل.

قلنا: هذا إنّما ذكره على حسب المعتاد، فإن في العادة الابتداء أصعب من الإعادة؛ فلمّا سلّموا أنه لا تعب في الابتداء فبأن لا يمتنع له الإعادة أولى.

الفرق السابع: أن كل فاعل فعل فعلاً فإنّه يتغيّر أولاً في نفسه ثم بسبب تغيّره يحصل الفعل خارج ذاته كالكاتب فإنّه ما لم يحرّك أصابعه لا يمكنه أن يكتب.

والحق ﷻ مُنزَّه عن ذلك، ولو توقفت فاعليّته على حدوث تغير في ذاته لكان المحدث لتلك الحالة المتغيّرة هو الله ﷻ فكان[2] يفتقر أحداث تلك الحالة إلى حدوث حالة أخرى ولزم التسلسل وهو تعالى غير مفتقر يُغني ويفقر ويمرض ويبرىء ويميت ويحيي ويُسعد ويشقي ويُطعم ويسقي ويدبر السمٰوات والأرضين من غير معين، فالبحار والجبال والدواب والذوات والصفات تحت تدبيره ومشيئته وهو منزّه في ذاته وصفاته من أنواع التغير والتحول والزوال والحركة والانتقال لا يعلم ما هو إلّا هو.

---

(1) ويوجد في الأصل بعد الآية (أي عندكم).
(2) فكان في الأصل فكأنه.

ومن عجائب هذا الموضع أن كل ما سوى رب العالمين فإنه يتغير علمه بتغير المعلومات، ويكثر علمه بتكثير المعلومات وهو سبحانه يعلم بعلم واحد ما لا نهاية له من المعلومات ويعلم بعلم باق دائم جميع التغيرات.

الفرق الثامن: أن كل ما سواه من الفاعلين فإنه لا يمكنه أن يجمع بين الأفعال الكثيرة فالكاتب لا يمكنه أن يكتب الكلمات الكثيرة على الجمع بل على التعاقب وبالجملة ما لم يفرغ عن أحد الفعلين لا يمكنه الاشتغال بالآخر، وأما الحق ﷻ هو القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن فهو مدبر العرش والكرسيّ واللوح والقلم والأنوار والظُلم والسمٰوات والأرضين والبحار والجبال والحيوان والنبات دفعة واحدة يخلق ذواتها ويدير صفاتها ويرى حاجاتها ويسمع نداءها ويجيب دعاءها فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن.

الفرق التاسع: أن كل من فعل فعلاً فإنه يفعل لجرّ نفع أو دفع ضر والحق جل وعلا منزه عن جرّ المنافع ودفع المضار وكل شيء صنعه ولا علة لصِنعه وقد بيَّنا دلائل هذا الفصل في باب دلائل التوحيد في تفسير قوله ﷻ: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾.

الفرق العاشر: أن كل من فعل فعلاً فإنه يحصل بعضه على وفق مراده وبعضه لا يحصل على وفق مراده، فالكافر يجتهد ليجد الحجة والمعرفة فلا يحصل مراده بل يقع في الشبهة والضلالة وكل أحد فإنما يتحرك ويسعى لطلب الخيرات ثم قد يحصل وقد لا يحصل. وقيل كل أحد يخرج بكرة يومه من داره قدرياً ويعود إليها بالمساء جبرياً يقول: بالبكرة أفعل كذا ليحصل كذا وبالمساء يقول: اجتهدت فما كان التقدير مطابقاً للتدبير. والحق سبحانه لا يقع فعله إلا على وفق مراده ومشيئته فإن كل الممكنات في قبضة قدرته وربقة إرادته لا دافع لما قضى ولا مانع لما أبدع وأبدى قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 111].

الفرق الحادي عشر: كل من سواه من الفاعلين فإنه قد يبقى المفعول بعد فناء الفاعل وموته، والحق سبحانه هو الباقي بعد فناء مخلوقاته كما قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16].

الفرق الثاني عشر: أن كل ما سواه مِنَ الفاعلين فإنه لا ينفكّ فِعله عن الخلل

والنقصان والحق ﷻ فعله غني عن الخلل والنقصان قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: 3 - 4].

ولو أنه جعل عقول جميع العقلاء عقلاً واحداً ثم بذلك العقل تفكروا في جناح بعوضة حتى يختاروا تركيباً أحسن منه وأكمل منه لفنيت العقول وانقطعت تلك الأفكار ولا تصير ذرة من ذرات حكمة الله في خلقه تلك البعوضة معلومة على سبيل الكمال والتمام.

فهذا مجمع الفرق بين فاعلية العبد وفاعلية الحق، ولما كانت فاعليته غنية عن المادة والمدة والآلة والعدّة والزمان والمكان وجلب الأغراض وتغير الأحوال والأغراض كان الحق سبحانه هو الفاطر للأشياء.

فلهذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 1] والله أعلم بحقائق الأشياء.

الفصل السادس:
«في شرح كون السموات خالية عن العبث والنقصان والتفاوت»

قال تعالى في سورة الملك: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ﴾ واعلم أن المقصود من هذه الآية لا يظهر إلاّ بعد تفسير هذه السورة من أوّلها إلى آخرها، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

اعلم أنه تعالى جعل لفظ ﴿تَبَارَكَ﴾ مطلعاً لسورتين:

إحداهما: سورة الفرقان، وهي قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، **والثانية** هذه السورة فنقول: أما لفظ ﴿تَبَارَكَ﴾ فقال الزجاج: تبارك، تفاعل من البركة، والبركة كثرة الخير وزيادته، وفيه معنيان:

أحدهما: تزايد خيره وتكاثر برّه وهو المراد لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: 34].

والثاني: معناه تزايد عن كل موجود وتعالى عن كلّ شيء في ذاته وصفاته وفي أفعاله، وهو المراد من قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11] أما تعاليه عن كل شيء في ذاته فيحتمل أن يكون المعنى: جلّ وجوب وجوده ودوام قدمه عن جواز الفقر والغنى، ويحتمل أن يكون المعنى، جلّت فردانيّته ووحدانيّته عن مشابهة الأضداد ومشاكلة الأنداد ومنازعة الأكفاء.

أما تعاليه عن كل شيء في صفاته فيحتمل أن يكون المعنى: جلّ في قدرته وفي علمه عن أن يخرج عنها شيء من المعلومات والمقدورات، ويحتمل أن يكون المعنى، جلّ علمه عن أن يكون ضرورياً واستدلالياً أو تصورياً وتصديقياً، وجلّت قدرته عن أن يحتاج في فاعليته إلى مادة ومدة وآلة، وجرّ نفعٍ ودفع ضرٍ.

وأما تعاليه فهو الملك الحق مطلقاً أي هو الغني عن كل ما سواه في ذاته وفي صفاته وفي أحواله، وكل ما سواه فهو محتاج إليه في ذواتها وفي صفاتها وفي أحوالها، حالتي حدوثها وبقائها، وتجددها واستمرارها، لا تنقطع الحاجات إليه ولا تزول الافتقارات إليه، وكل موجود فبإيجاده موجود وكلٌّ باقٍ فبإبقائه باقٍ، شهدت الحاجات في غيره على تقدسه عن الحاجات، ودلّت التغيرات في غيره على كونه منزهًا عن التغيرات.

وقال آخرون: أصل الكلمة يدل على البقاء وهو مأخوذ من بروك البعير ومن بروك الطائر على الماء، وسميت البِركةُ بِركةً لثبوت الماء فيها.

والمعنى: أنّه ﷻ بَاقٍ في ذاته أزلاً وأبداً، فمنع التغيرات في صفات جلاله ونعوت جماله يمنع التبدُّل.

ولما كان الحق ﷻ هو المعطي لجميع جهات المنافع والمصالح والميسّر لكل المطالب والمناجح وجب وصفه بأنه: تبارك.

إذا عرفت هذا فنقول: أنه تعالى ذكر في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ وقال في سورة الملك: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ ونحن نفسر كل واحد منهما بقدر عقولنا القاصرة وأفهامنا الناقصة ونَكِل أسرارها إلى علمه الكامل وحكمه المحيط، **فنقول: في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ فوائد:**

الفائدة الأولى: أن الفرقان هو القرآن، وُصف بذلك من حيث أنّه سبحانه فرّق به بين الحق والباطل والحجة والشبهة في دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد.

أو لأنه فرق في النزول كما قال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: 106]، وهذا التأويل أقرب لأنه تعالى قال: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ولفظ نزل يدل على التفريق.

أو لأنّه فرق بين الشرائع والأحكام والحلال والحرام فخصّ بعضها بالإيجاب وبعضها بالتنزيه فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: 7].

فهذه وجوه ثلاثة في بيان أنّ القرآن لِمَ [سُمّي][1] الفرقان؟

---

(1) [سمى] في الأصل سمّاه.

الفائدة الثانية: أنه ﷻ لما قال في أول [السورة][1]:

تبارك، ومعناه الخير والبركة ثم ذكر عقيبه أمر القرآن دلّ ذلك على أن القرآن منشأ أعظم الخيرات وأكمل البركات، لكن المستفاد من القرآن هو العلم والمعرفة والحكمة؛ فدلّ هذا على أنّ [العلم][2] أشرف المخلوقات وأنفع المحدثات وأكثرها خيراً وبركة.

الفائدة الثالثة: لا نزاع بالإجماع أن المُراد من العبد ههنا محمّد ﷺ، وسمعت بعض المشايخ قال: لمّا أسرى بمحمّد ﷺ إلى (قاب قوسين) أوحى الله تعالى إليه وقال: بمَ تريد أن أشرّفك؟ فقال: «**إلٰهي أريد أن تشرّفني بأن تذكرني بكوني عبداً لك**» فأوحى الله ﷻ إليه: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: 1].

فانظر إلى هذه الدقيقة: وصف نفسه في هذه السورة بالتسبيح والتقديس والتنزيه حتى سماه عبداً، وفي سورة الفرقان بكونه مباركاً ومتعالياً حتى سمّاه عبداً، وهذا يدلّ على أن كلّ من كان أشد عرفاناً بعبوديته وذلته وخضوعه وافتقاره كان تجلي أنوار قدس جلال الله في عقله أتمّ وظهور نور كبريائه على وجهه أجلى وأعظم.

الفائدة الرابعة: اختلفوا في المراد بقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ومنهم [من قال][3]: المعنى ليكون هذا القرآن نذيراً، وأضاف الإنذار إليه كما أضاف الهداية إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، إلّا أن هذا وإن كان محتملاً لكنّ جعل النذير صفة لمحمد ﷺ أولى من جعله صفة القرآن **ويدل عليه وجهان:**

الأوّل: أن نصّ القرآن دلّ على أن النذير صفة لمحمّد ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45].

الثاني: أن جعل النذير صفة لمحمّد ﷺ [حقيق][4] وجعله صفة للقرآن مجاز وحمل الكلام على الحقيقة أولى.

الفائدة الخامسة: قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ يدل على أن محمداً ﷺ

(1) [السورة] في الأصل سورة.
(2) [العلم] في الأصل العمل.
(3) [من قال] زيادة يقتضيها السياق.
(4) [حقيق] زيادة يقتضيها السياق.

مبعوث إلى جميع العالمين؛ وذلك لأن لفظ العالم عبارة عن كل موجود سوى الله فيدخل فيه جميع المكلفين من الجنّ والإنس والملائكة، كلنا أجمعنا على أنه عليه أفضل السلام ما كان رسولاً إلى الملائكة فبقي كونه رسولاً إلى الإنس والجنّ جميعاً، وتأكد هذه الآية بآيات أخر:

إحداهما: قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبإ: 28].

الثانية: قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ [الإسراء: 88].

الثالثة: سورة الجن وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾.

الفائدة السادسة: أن لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات فهذه الآية تدل على أنه ﷺ رسول إلى الخَلق إلى يوم القيامة.

وهذه الآية متأكدة بقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40] واعلم أنه تعالى وصف ذاته بعد هذه الآية بأربعة أنواع من صفات الكبرياء والجلال والقدس والعظمة.

أولها: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

واعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها من وجهين:

الوجه الأول: أن لله تعالى على العباد نوعين من الملك، أحدهما: ملك التكليف؛ وذلك لأنه تعالى ملك مطاع في المخلوقات لأنه مالكهم وخالقهم ومدبرهم، والمتصرف فيهم والمستولي عليهم، وكان ملكاً مطاعاً، والملك المطاع من له الأمر والنهي.

الثاني: ملك التخليق، فقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ الآية إشارة إلى تقدير ملك التكليف ثم قال بعده: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو إشارة إلى ملك التخليق؛ فإن ملك [التكليف] معلل بملك [التخليق] فلمّا قال: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أثبت بهذه الآية التكليف لنفسه، كأنه قيل: وَلِمَ يحسُنُ

منك التكليف والأمر والنهي مع أنك منزه عن الضرّ والنفع، والمكلفُ لا ينتفع بهذا التكليف؟

فأجاب الحق تعالى فقال: إنما حسن مني ملك التكليف، لأنه حصل لي ملك التخليق؛ فالكلُّ عبيدي وللمالك أن يتصرف في ملكه ومُلكه كيف شاء أو أراد، ولا اعتراض للعبد على مالكه ألبتّة، فلهذا قال تعالى بعد تلك الآية: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

والوجه الثاني: في بيان النظم أنه تعالى لما وصف نفسه بكونه مرسلاً للرسل وذلك يتوقف على ثبوت ذاته وثبوت صفاته لا جرم أردفه بما يدل على جميع ذلك فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فاستدل على وجوده وكمال قدرته وكبريائه وإلٰهيته بملكوت السمٰوات والأرض.

ووجه الاستدلال بملك السمٰوات والأرض على وجود الصّانع وصفات جلاله قد شرحناه فيما قبلُ. ثم في هذه الآية فائدتان:

الأولى: أن الملك إشارة إلى القدرة والمتكلمون بيّنوا أن أولى العلم بالله هو العلم بكونه قادراً فلهذا السبب قدم ذكر هذه الصفة.

الفائدة الثانية: أن قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى احتياج جميع المخلوقات إليه، حالتي حدوثها وبقائها؛ وذلك لأن علة الحاجة هي الإمكان، والإمكان من لوازم هذه الماهيات؛ فهي ممكنة حالتي حدوثها وبقائها فهي محتاجة إلى المؤثر والمدبر حالتي حدوثها وبقائها، في ماهيّاتها وفي وجوداتها وفي صفاتها؛ فلا جرم كان الحق ﷻ مالك الملك لجميع الممكنات على الإطلاق أزلاً وأبداً، وهو المتصرف فيها كيف شاء وأراد، لا رادّ لما حكم ولا ناقض لما أبرم له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الفرقان: 2].

اعلم أن صفات الله على قسمين: صفات الجلال، وصفات الإكرام.

أمّا صفات الجلال: فهي عبارة عن تنزيه الله عز وجلّ عمّا لا يليق به في ذاته وصفاته وأفعاله.

وأما صفات الإكرام: فهي عبارة عن وصف الله بالصفات التي يمكن كونه خالقاً للعالم على نعت الإحكام والإتقان فقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من قسم صفات الإكرام، وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ من قسم صفات الجلال.

وأعلم أن تعالى لمّا وصف نفسه بملك السمٰوات والأرض قال بعده:

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وهو إشارة إلى أنه المدبر للعالم، والمعبود للخلق أبداً، ولا يصح أن يصير غيره وارثاً للملك، فيكون نفي الولد كالمؤكد لقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ ولقوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كأنه قيل: المفتقر إلى الولد هو الذي ينقضي ويموت حتى يقام ولده مقامه. فأمّا من كان متباركاً دائم الوجود ممتنع التغير فكيف يليق به الولد؟

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الفرقان: 2] والمُراد أنّه سبحانه هو المنفرد بهذه الصفات فإنه هو الواجب لذاته وما سواه ممكن لذاته، وهو الموجد للممكنات وما سواه فعن صفة الموجدية الجلالية معزول، فإذا عرف العبد ذلك انقطع رجاؤه وخوفه عن الخلق ولا يبقى مشغول القلب ملتفت الخاطر إلّا به وبفضله وبرحمته وإحسانه جلّ وعزّ، وهذه الآية رد على الثنوية والقائلين بإلٰهية النجوم وعبدة الأوثان.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ ففي هذه الآية فوائد:

الأولى: أن قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى صفة من صفات الإكرام ثم قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ إشارة إلى ذكر صفتين من صفات الجلال ثم قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ إشارة إلى ما يتركب من صفات الإكرام وصفات الجلال، لأنه إشارة إلى أنه هو الخالق وإلى أن غيره ليس بخالق.

فإن قيل: صفات الجلال أولى بالتقديم من صفات الإكرام.

قلنا: يدل عليه القرآن والبرهان.

أمّا القرآن فهو تعالى ذكر الجلال والإكرام في آيتين فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: 27] وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمٰن: 78] وفي كلّ واحدة من هاتين الآيتين قدم الجلال على الإكرام. وأمّا البرهان فلأن

صفات الجلال عبارة عن السلوب ويكفي في تحقيق هذه السلوب الذات المخصوصة من حيث هي هي وأما صفات الإكرام فإنها لا تظهر إلا عند وجود الممكنات وما يكفي فيه ذاته من حيث أنه هو متقدم في المرتبة على ما لا بد معه من غيره. والجواب هاهنا مرتبتان:

الأولى: أن يتوسل بمعرفة غير الله إلى معرفة الله وهذا هو مقام عروج المسافرين إلى الله تعالى والمسافرين إلى حضرة جلال الله.

الثانية: أن يتوسل بمعرفة ذات الله إلى معرفة غير الله وهذا مقام نزول خواص حضرة الله عن تلك الحضرة المقدسة إلى الالتفات إلى غيرها، فإن اعتبرنا المرتبة الأولى كانت معرفة صفات الإكرام مقدمة على معرفة صفات الجلال لأنها في هذه المرتبة يستدل بالمخلوقات على الخالق ثم يستدل بعدم افتقار الخالق إلى خالق آخر على كونه منزهاً عن مشابهة المخلوقات. وأما إن اعتبرنا المرتبة الثانية وهي مرتبة النزول كان تحقق صفات الجلال مقدماً بالمرتبة على تحقق صفات الإكرام، فإن تلك السلوب يكفي في تحققها الذات أما الإضافات فلا يكفي فيها الذات الواحدة بل لا بد في تحققها من حصول المضافين. إذا عرفت هذا فنقول أنه تعالى لما قال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: 1] فكأنه قيل كونه مرسلاً للرسل إنما يثبت لو ثبت كونه موجوداً فما الدليل على وجوده وقدرته؟

فيقال الدليل عليه ملك السمٰوات والأرض وهذا هو مرتبة العروج من الخلق إلى الخالق فلا جرم قدم هاهنا صفات الإكرام على صفات الجلال، وأما قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمٰن: 27] وقوله ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمٰن: 78] فليس المقصود هاهنا ذكر الاستدلال بل المقصود منه الاستخبار عن نعوت قدسه وعظمته وكبريائه فكانت صفات الجلال مقدمة في هذا المقام على صفات الإكرام فسبحان من أودع هذا الكتاب الكريم أسراراً يعجز العقول عن إدراكها.

فقد ظهر بما ذكرنا أن الترتيب الصحيح في هذا المقام هو أنه تعالى قدم صفات الإثبات فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم ذكر بعد ذلك صفتين من صفات الجلال:

أولهما: نفي الولد، **والثانية**: نفي الشريك، ثم ذكر بعدهما ما تركب عن صفة

الإكرام وصفة الجلال فقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وذلك لأن قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يدل على كونه خالقاً للأشياء وهي صفة الإكرام وعلى أن غيره لا يشاركه في هذه الصفة وهي صفة الجلال ومعلوم أن تقدم المفرد على المركب واجب فهذا هو الإشارة إلى ترتيب الصفات المذكورة في هذه الآية.

(الفائدة الثانية): من أسرار هذه الآية أنها دالة على أنه سبحانه وتعالى خالق أعمال العباد وذلك لأن قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ نظير لقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: 62].

وقد دلّلنا على أن الخلق عبارة عن الإيجاد.

وهاهنا لطيفة تؤكد هذا المقصود وهي أنه تعالى نفى الشريك بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: 111] فكأن قائلاً قال: هاهنا أقوام يعترفون بنفي الشركاء والأنداد ومع ذلك يقولون أنهم يخلقون أفعال أنفسهم فذكر الله هذه الآية لتكون نصاً صريحاً في الرّد عليهم.

فإن قيل: هذه الآية لا تدل على هذا المطلوب ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه تعالى صرح بكون العبد خالقاً فقال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: 110] وقال: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: 17] وقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

الثاني: أن يقال ذكر ذلك في معرض المدح ولا يجوز أن يتمدح بكونه فاعلاً لأفعال العباد وما فيها من القبائح [لأنه] تعالى تنزه عن فعل القبائح في سائر الآيات فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: 27].

وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: 115] وقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: 31].

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ ولا يجوز أن يريد به الحكمة والصواب، ألا ترى أنه تعالى نفى التفاوت عن أفعال نفسه فقال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ فقالوا: يثبت بهذه الوجوه أنه لا بد من تأويل لو دلت الآية بظاهرها على قولكم فكيف ولا دلالة فيها على قولكم، لأن الخلق عبارة عن التقدير فيختص

ذلك بما يقبل التقدير وهو الجسم الذي له حجم وامتداد، والجواب: أما الآيات الدالة على كون العبد خالقاً فنقول هاهنا آيات دلت على أن العبد غير خالق وآيات دلت على أنه خالق ولا بد من التوفيق بينهما فتحمل الآيات الدالة على كون نفي الخالقية على نفي كون العبد موجداً والآيات الدالة على كونه خالقاً على كونه متصوراً متفكراً متقدراً في ذهنه أموراً قوله لا يمكن التمدح بخلق العبث. قلنا لا يمكن التمدح بخلقها من حيث أنها عبث لكن لم لا يجوز التمدح بخلقها من حيث أنها إخراج الشيء من العدم إلى الوجود فقط، قوله لفظ الخلق لا يتناول إلا الأجسام قلنا: لو كان كذلك لكان قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ خطأ لأنه ليس كل شيء جسماً.

(الفائدة الثالثة) من أسرار هذه الآية أن كثيراً من الناس زعموا أن الخلق هو التقدير فقط وأصحابنا زعموا أنه حقيقة في الإيجاد والإبداع وهذه الآية دالة على قولنا إذ لو كان الخلق عبارة عن التقدير لكان قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ مكرراً من غير فائدة ونظير هذه الآية في الدلالة على هذه المسألة قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى: 1 ـ 2] فلو كان الخلق هو التقدير لكان قوله وخلق وقدر تكريراً.

(الفائدة الرابعة): أنه تعالى قال: فقدره تقديراً، والتقدير في حق الواحد منا يرجع إلى الظن والحساب أما في حقه جل وعلا فما معنى له إلا العلم والإخبار عنه وذلك متفق عليه بيننا وبين المعتزلة.

إذا عرفت هذا فنقول مذهبنا أن الأمر والإرادة لا يتلازمان وذلك أنه سبحانه وتعالى لما علم في الشيء الفلاني أنه لا يقع فلو وقع ذلك الشيء لزم انقلاب علمه جهلاً وانقلاب خبره الصدق كذباً وذلك محال، والمفضي إلى المحال محال فإذا وقع ذلك الشيء محال والمحال غير مراد ثم أنه مأمور به فثبت أن الأمر والإرادة لا يتلازمان، فظهر أن السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه.

واعلم أن الأمر والإرادة عندنا لا يتلازمان، والإرادة والعلم يتلازمان، وعند المعتزلة الإرادة والأمر يتلازمان والإرادة والعلم لا يتلازمان. وتحقيقه ما ذكرنا.

فهذا ما يتعلق بهذه الآية أما قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فاعلم أن الفرق بين هذه الآية وبين الآية المتقدمة من وجوه:

الأول: أن في سورة (الفرقان) أثبت لنفسه أولاً ملك التكليف والحكم والأمر والنهي ثم أردفه بأن أثبت لنفسه ملك السمٰوات والأرض، وأما في سورة (الملك) فإنه أثبت لنفسه أولاً الملك على الإطلاق فقال: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ وهذا يتناول جميع أقسام الملك من ملك التكليف وملك التخليق وملك الإنفاق وملك الإفناء كما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26].

الفرق الثاني بين الاثنين: أنه تعالى قال في تلك الآية: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقال في سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فذكر لفظ اليد هاهنا والفائدة في ذكر هذه اللفظة أنه تعالى لما أثبت لنفسه أنواع الملك حتى دخل فيه ملك الأجسام من فوق العرش إلى ما تحت الثرى وملك الأرواح المشار إليه بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31] فكأن سائلاً قال: المدبر الواحد كيف يمكنه الوفاء بتدبير كل هذه الممالك التي لا نهاية لأحوالها ولا غاية لكميّتها وكيفيتها؟ فأجاب: بأن كل هذه الممالك في يده وفي قبضته كما قال في آية أخرى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: 67] وذلك لأن كمال القدرة على الشيء أن يكون ذلك الشيء في يده فجعل كونه في يده مجازاً عن كمال القدرة فلهذا المعنى قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ ثم قال بعده: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ والمعنى أن بيده ملك جميع الموجودات وهو قادر على خلق المعدومات التي تكون من الممكنات فقوله (بيده) إشارة إلى ملك تلك الموجودات بالاتفاق من الإيجاد والإعدام وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ إشارة إلى ملك المعدومات بالإيجاد والإبداع.

فإن قيل: القدير مبالغة في القادر فلو قال: وهو على كل شيء قادر أفاد ذلك كونه تعالى قادراً على كل واحد من تلك المقدورات التي لا نهاية لها، فإذا كان القدير للمبالغة وجب أن يفيد هذا زيادة على كونه تعالى قادراً على كل واحد من تلك المقدورات لكن الشيء الواحد لا يقبل التفاوت فلا يتطرق الزيادة والنقصان إليه فما معنى هذه المبالغة؟.

قلنا: لو أنه تعالى قال: وهو على كل شيء قادر أفاد ذلك كونه تعالى قادراً على كل المقدورات فلما قال وهو على كل شيء قدير أفاد ذلك زيادة قدرته في كل واحد من المقدورات وتلك الزيادة والمبالغة راجعة إلى ما بيناه في ما تقدم من أن

جميع القادرين يفتقرون في الفعل والتكوين إلى تقديم مادة ومدة وزمان ومكان وآلة ورويّة، ثم قد يمتنع عليهم تكوين مقدورهم لأجل أنه يمنعه عنهم مانع ومعارض وكل ذلك على الله محال فلا جرم صدق قولنا أنه قادر على كل شيء وصدق أيضاً في المغالبة هو أنه قادر على كل شيء ثم قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾.

فاعلم أنه تعالى لما ذكر أولاً أن بيده ملك الموجودات والمعدومات ثم قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ وزمان التصرف في كل الكائنات والممكنات خصص بعده بالذكر ملك الإحياء والإماتة فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: 28] **وإنما قدّم الموت على الحياة لوجوه:**

الأول: لو قال قائل: لِمَ قدّم الموت على الحياة؟ **قلنا:** يعني بالموت نطفة وعلقة ومضغة والحياة نفخ الروح فيه.

الثاني: أنه لما ذكر عقب هذه الآية أنه تعالى ابتلى الخلائق بالتكاليف فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ والعقلاء من الناس إنما يقدمون محاسن الأعمال لخوف ما بعد الموت فكان أقوى تأثيراً من هذا المقصود فلا جرم قدم ذكر الموت على الحياة.

والثالث: أن المراد بهذا الموت المذكور في هذه الآية، الموت الذي بعده هذه الحياة العاجلة ألبتة وذلك لأن الحياة حياة بعد موتين أحد الموتين من الأزل إلى الآن والموت الثاني من الأزل إلى الأبد فلا جرم أنزل الله تعالى ذكر هذه الحياة لخسّتها وقلتها، وأما الحياة في الدار الآخرة فهي الحياة الأصلية لأنها حياة مؤبدة ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64] ثم قال بعد ذكر الموت والحياة: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ والابتلاء هو التجربة والامتحان حتى يعلم أنه هل يطيع أو يعصي وذلك في حق الله محال، وسيجيء تمام هذه المسألة إن شاء الله تعالى في باب التكليف.

والحاصل هو أن الابتلاء من الله تعالى هو أن يعامل عبده معاملة تشبه عمل المُمتحنين.

واعلم أنا إن فسّرنا الموت والحياة بالموت حال كونه نطفة وعلقة ومضغة

وبالحياة حياة الدنيا فوجه الابتلاء على هذا التفسير أن يعلم العبد أنه تعالى هو الذي نقله من الموت إلى الحياة، وكما فعل ذلك فلا بد أن يكون قادراً على أن ينقله من الحياة إلى الموت فيحذر مجيء الموت الذي به ينقطع استدراك ما فات فلا يقصّر، وأما إن فسّرنا الموت والحياة بالموت في الدنيا والحياة في القيامة فالابتلاء فيها أتم لأن الخوف من الموت في الدنيا حاصل وأشدّ منه الخوف من الحياة في القيامة.

واعلم أن أول هذه السورة مع أول سورة الفرقان متشابهان في المقصود وذلك لأنه تارةً يذكر الحكم ثم يذكر عقبه سببه وعلّته، وأخرى بالعكس من ذلك وهو أن يذكر السبب والعلة أولاً ثم يذكر الحكم عقبه.

إذا عرفت هذا فنقول: في سورة الفرقان ذكر آية التكليف أولاً بقوله: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ثم ذكر العلة والسبب بعده فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأما في سورة الملك فإنه ذكر السبب والعلة أيضاً وهو أنّه مالك الملك على الإطلاق ومالك الملك في الإحياء والإماتة ثم أنه ذكر الحكم بعده وهو حسن التكليف فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فانظر إلى هذه المناسبات العجيبة والأسرار اللطيفة ثم إن المفسرين ذكروا في تفسير أحسن عملاً وجوهاً:

الأول: قال أبو قتادة: المعنى أيكم يأتي بالأعمال على وجه الإخلاص والصواب لأن العمل إذا كان صواباً غير خالص لم يقبل أيضاً بل المقبول هو أن يكون صواباً وخالصاً لوجه الله والصواب هو أن يكون على وفق أمر الله والخالص هو أن يؤتى به لوجه الله.

الثاني: قال أبو قتادة: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: يقول أيكم أحسن عملاً قال ﷺ: «**أتمكم عقلاً أشدكم خوفاً وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه**» نظراً وإنما جاز تفسير حسن العمل بتمام العقل لأن حسن العمل من نتائج كمال العقل فمن كان أتمّ عقلاً كان أحسن عملاً.

الثالث: قال الحسن: أحسن عملاً أزهد في الدنيا وأشدّ تركاً له.

واعلم أنه تعالى لما ذكر حديث الابتلاء قال بعده: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: وهو الغالب الذي لا يعجزه من أساء في الأعمال، الغفور لمن تاب وآمن وأناب،

وإنما قدم ذكر العزيز على الغفور ليظهر به كمال الدرجة لأن الإنسان قد يغفر ذنب عبده إما لأنه لا يقدر على الانتقام في الحال أو لأنه وإن قدر عليه في الحال لكنه تركه لأنه يخاف توابع ذلك الانتقام وعواقبه، فهاهنا ذكر تعالى أنه عزيز قادر قاهر غالب لا يمتنع عليه فعل شيء ولا يخاف عاقبة شيء من الأشياء، ثم إنه مع ذلك غفور يتجاوز عن سيئات عباده ليظهر بذلك كمال كرمه ورحمته. ثم فيه دقيقة أخرى: وهي أن العبد له من الظلم ثلاثة أسماء بعد ذلك وللرب من المغفرة ثلاثة أسماء، أحد أسماء العبد: "الظالم" كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وفي مقابلته للرب ﷻ من المغفرة اسم "الغافر" قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾. الاسم الثاني للعبد: "الظلوم" قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ وفي مقابلته للرب من المغفرة اسم "الغفور" كما في هذه الآية وكما في قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾. الاسم الثالث للعبد: الظلام ومقابلة للرب من المغفرة الغفار فقال: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ وقال في سورة نوح عليه السلام: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ فكأنه قال: لا تخف ولا تيأس فإن كنت ظالماً فأنا غافر، وإن كنت ظلوماً فأنا الغفور، وإن كنت ظلاماً فأنا الغفار.

ثم اعلم أنه تعالى لما ذكر كونه عزيزاً غفوراً، وكونه عزيزاً غفوراً لا يتم إلّا إذا كان قادراً على كل الممكنات عالماً بكل المعلومات، فلعله لا يتمكن من إيصال خيرٍ لكل واحدٍ على سبيل الكمال والإتمام سواء كان عقاباً أو ثواباً، وأما أنه لا بد من العلم بكل المعلومات فلأجل أن يعلم المطيع من هو؟ والعاصي من هو؟ حتى لا يقع الخطأ في إيصال الحق إلى مستحقه فثبت أن كونه عزيزاً غفوراً لا يمكن الإقرار بهما إلّا بعد الإقرار بكونه تعالى عالماً بكل المعلومات قادراً على الممكنات، فلهذا السبب ذكر الله تعالى عقب هذه الآية ما يدل على كمال القدرة وعلى كمال العلم، ولمّا ثبت في علم الأصول أن أولى العلم بالله هو العلم بكونه قادراً لا جرم قدّم دلائل القدرة على دلائل العلم. أما دليل إثبات القدرة فهو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ قال صاحب الكشاف في قوله طباقاً ثلاثة أوجه: أحدها طباقاً أي مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النّعل إذا خصفها طبقاً على طبق وهذا وصف المصدر.

الوجه الثاني: أن يكون التقدير طوبقت طباقاً واعلم أن دلالة السمٰوات وطبقاتها على وجود الصانع الجبار الحكيم قد تقدم شرح أقسامها في هذا الكتاب فلا تعاد. وأما دليل إثبات العلم فهو قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ واعلم أن

حقيقة التفاوت عدم التناسب، كأن بعض الشيء لا يشبه بعضاً ولا يلائمه، يقال: هذا خلق متفاوت ونقيضه متناسب وللمفسّرين فيه وجوه ثلاثة: قال السري: ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت أي من اختلاف وعيب يقول الناظر: لو كان كذا لكان أحسن، وقال آخرون: التفاوت الفطور بدليل قوله: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ وقال القفال: يحتمل أن يكون المعنى: ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت في الدلالة على حكمة صانعها وعلمه وقدرته. واعلم أن وجه الاستدلال بهذا المعنى على كمال علم الله أن نقول أن الحس دلّ على أن هذه السمٰوات وقع تركيبها على وجه عجيب بديع موافق للمصلحة والحسن، وكل فاعل كان فعله كذلك فهو لا بد أن يكون في غاية العلم والحكمة فقوله: ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت إشارة إلى كونها محكمة ومتقنة، والإحكام والإتقان عند المتكلمين يدل على علم الفاعل دلالة ضرورية. ثم قال تعالى بعده: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ كأنه قال بعده: ولعلك لا تحكم بمقتضى النظر الواحد ولا تعول عليه بسبب أنه قد يقع الغلط في النظرة الواحدة، ولكن ارجع البصر واردد النظر مرة بعد أخرى حتى تتيقن أنه ليس في خلق الرحمٰن من تفاوت ولا عيب ولا فطور، والعجب أنه قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم بيّن في هذه الآية أنه ليس فيها عيب ولا فطور ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ فليس فيها فطور ولا فروج وليس فيها تفاوت بل هي سبع شداد وسبع طباق وبناء مرفوع وسمك مصنوع، وفيها آيات قاهرة وبراهين باهرة على وحدة صانعها وقدرة مقدرها ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أمره بتكرير البصر في خلق السمٰوات على سبيل التصفّح هل تجد فيه عيباً وخللاً؟ يعني أنك وإن كررت هذا النظر مراراً وأطواراً لم يرجع إليك بصرك بما تطلبه من وجدان الخلل والعيب، بل يرجع إليك خاسئاً أي مُبعداً وهو مأخوذ من قولك: خسأت الكلب إذا بعّدته قال المبرد: الخاسىء البعيد المصغى قال ابن عباس: (الخاسىء الذي لا يرى ما يهوى والحسير الكليل) والمعنى أنه وإن كرر النظر وأعاده فإنه لا يجد عيباً ولا فطوراً ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وسنذكر تحقيق هذه الآية وأسرارها في باب الاستدلال بأحوال الكواكب على وجود الصانع.

فهذا جملة الكلام في هذه واعلم أنّه بقي من الصفات المذكورة في القرآن للسمٰوات صفاتها عند قيام القيامة كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1]، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: 9]، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾

[التكوير: 11]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: 25]، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: 104]، ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: 8]، ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطور: 9] ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمٰن: 37].

والكلام في شرح هذه الأحوال سيجيء إن شاء الله تعالى في باب كيفية قيام القيامة.

وبالله التوفيق

تم كتابة الجزء الأول من هذا الكتاب ويليه الجزء الثاني وأوله:

«الفصل السابع في الاستدلال بأحوال الأرض على وجود الصانع»

أسرار التنزيل وأنوار التأويل

للإمام فخر الدين الرازي

تحقيق

محمود أحمد محمد   بآبا الشيخ عمر

صالح محمد عبد الفتاح

الجزء الثاني

الفصل السابع:
في الاستدلال بأحوال الأرض على وجود الصانع

اعلم أنّه ﷻ نبّه على الاستدلال بأحوال الأرض على وجود الصانع وقدرته وعلمه وحكمته وجلالته في آيات منها: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: 22].

واعلم أنه تعالى ذكر أنواع منافعها على الشرح والتفصيل في كتابه الكريم.

النوع الأول: من منافع الأرض أنه خلق كلَّ ما في الأرض قال في أول سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29] وقال في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: 65].

واعلم أن الكلام في الآية المذكورة في سورة البقرة لا يتم إلّا بتفسير ما قبلها، واعلم أنه تعالى ذكر في أول هذه السورة خمس آيات في تعظيم المؤمنين وهي إلى قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ثم ذكر بعد ذلك آيتين في ذم الكفار وهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم ذكر ثلاث عشرة آية في ذم المنافقين وهي من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: 8] إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾.

فإن قيل: كفر الكافر المتظاهر بكفره أغلظ من كفر المنافق، فلماذا كان ذم الكافر في آيتين والمنافق في آيات كثيرة؟

قلنا: لأن الكافر وإن كان كافراً إلّا أن طبعه طبع الرّجال؛ فما يُضمِرُه يُظهره، وأمّا المنافق فطبعه طبع المخنثين يضمر شيئاً ويظهر شيئاً؛ فلهذا ورد ذمه أكثر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145].

ثم إنّه تعالى لمّا شرح أحوال هذه الفرق الثلاث شرع بعد ذلك في تقرير الدلائل، فبدأ بذكر دلائل الصانع وذكر من الأنفس دليلين ومن [الآفاق][1] ثلاثة.

أمّا من الأنفس فقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 21] وأمّا من الآفاق فقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾. ثم ذكر بعد هذه الدلائل دلائل نبوّة محمد ﷺ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: 23].

ثم ذكر بعده صورة الحشر والنشر والقيامة فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25] ثم أورد سؤالاً على الدليل الذي ذكره على نبوة محمد عليه أفضل السلام؛ ذلك لأنه استدلّ على نبوّته بعظم حال القرآن وكمال درجته، فطعن الكفار فيه فقالوا: كيف يكون عظيم الدرجة وهو مشتمل على شرح حال الحيوانات الخسيسة كالبعوضة والنمل والذباب والعناكب، فأجاب الله تعالى عن هذا السؤال بقوله جلّ وعزّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:26] ثم ساق آخر هذا الجواب [إلى][2] مسألة القضاء والقدر وهو قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: 26] إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ وعند هذا تمّت الدلالة على تقرير هذه الأصول الأربعة، وهي التوحيد والنبوة والمعاد والقدر.

ثم بعد تقرير هذه الأصول بالدلائل القاهرة والبراهين الباهرة شرع في تعديد النعم، ومعلوم أن النعم منها عامة ومنها خاصّة فقدم ذكر النعم العامة على غيرها ومعلوم أن أصل جميع النعم هي الحياة، فإنه لولا الحياة لما كان الانتفاع بشيء من النعم ممكناً فلا جرم [أن][3] أول النعم التي ذكرها الله تعالى في الحياة فقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: 28] الآية، **وفي هذه الآية فوائد:**

الأولى: أن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ وإن كان في صورة الاستخبار[4] إلّا أن المراد منه التبكيت والتعنيف لأن عظم النعم يقتضي عظم معصية المنعم، بيان

---

(1) الآفاق في المخطوطة الأوفاق.
(2) إلى الظاهر بدون إلى.
(3) [أن] زيادة يقتضيها السياق.
(4) الاستخبار الظاهر الاستفهام.

ذلك أنّ الوالد لمّا عظمت نعمته على الولد بأن ربّاه وعلّمه وكساه وأعطاه الأموال وعرضه للأمور الجسيمة لا جرم كانت معصيته لأبيه أقبح المعاصي؛ فقابل نعم الله عليك بنعم أبيك عليك حتى تعرف عظم معصيته ونهاية قبحها.

ثم أعظم المعاصي هو الشرك والكفر فلمّا كانت هذه المعاصي متناهية إلى الغاية القصوى في القبح لا جرم ذكر الله تعالى نعمة عظيمة عليهم ليصير ذلك تنبيهاً على عظم جرمهم وغاية قبح طريقهم ليصير ذلك زاجراً لهم عنه؛ فذكر أوّلاً منّ الحياة التي هي أصل جميع النعم وذكر ذلك بصيغة كيف على سبيل التعجب تنبيهاً على غاية درجة هذه النعمة وغاية قبح تلك المعصية.

الثانية: قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على أن الكفر من العبد لا من الله وبيانه من وجوه:

الأول: أنه تعالى لو كان هو الخالق للكفر فيهم لما جاز أن يقول: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ على سبيل التوبيخ كما لا يجوز أن يقال لهم: كيف يسوّدُون ويبيضون ويصحّون ويشتمون؟ ولما كان كل ذلك إنما يحصل لأن الله تعالى يخلقه فيهم.

والثاني: أنه تعالى لمّا خلقهم للشقاء والنار وما خلقهم إلا للكفر والضلالة والبقاء في النار فكيف يصح أن يقول: كيف تكفرون؟

والثالث: كيف يليق بالحكيم أن يقول: كيف تكفرون بالله حال ما يخلق الكفر فيهم ويقول: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ [الإسراء: 94] حال ما منعهم عن الإيمان ويقول: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الانشقاق: 20]، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [المدثر: 49] وهو يخلق فيهم الإعراض، ويقول: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: 75] كيف يصرفون ويخلق الصرف والإفك فيهم، ومثل هذا الكلام بأن يعدّ من السخرية أولى من أن يذكر لأجل إلزام الحجة على العباد.

الرابع: أنه تعالى لمّا قال للعباد: كيف تكفرون بالله؟ فهل ذكر هذا الكلام توجيهاً للحجة، أو ليس كذلك فإن لم يكن لتوجيه طلب الحجة كان ذلك عبثاً ولا يكون في إنزال القرآن فائدة أصلاً، وإن كان ذلك لإلزام الحجة فللعبد أن يقول: بناءاً على مذهب الجبر: حصل في حقي أمور كثيرة موجبة للكفر مانعة عن الإيمان: **الأوّل:** أنك علمت الكفر منّي و أنا لا أقدر على أن أقلب علمك جهلاً، **والثاني:** أنّك

أردت الكفر مني وهذه الإرادة موجبة، **والثالث**: أنّك خلقت الكفر وأنا لا أقدر على إزالة فعلك، **والرابع**: أنّك أخبرت عن وجود هذا الكفر وأنا لا أقدر على جعل خبرك الصدق كذباً، **والخامس**: أنك خلقت قدرة لا تصلح إلّا للكفر، **والسادس**: أنّك خلقت إرادة جازمة للكفر، **والسابع**: أنك زيَّنت الكفر، **والثامن**: أنك سلّطت على القلب الرّين والطبع والوقر والغشاوة والختم وكل ذلك أسباب موجبة للكفر ثم لمّا خلقت هذه الأسباب الثمانية الموجبة للكفر سلبت مجموع الأسباب الثمانية المعتبرة في حصول الإيمان فقد حصل لعدم الإيمان ستة عشر سبباً كلُّ واحد مستقل بالمنع من الإيمان، ومع قيام هذه الأسباب الكثيرة كيف يحسن التوبيخ على الكفر والترغيب في الإيمان؟ **والتاسع**: أنه تعالى قال لرسوله: قُل لهؤلاء الكفار: كيف تكفرون بالله الذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة أعني نعمة الحياة، وعلى قول أهل الجبر لا نعمة له تعالى على الكافر وذلك لأن عندهم، كل ما فعله الله تعالى بالكافر فإنما فعله ليستدرجه إلى الكفر ويحرقه بالنار، وعلى هذا التقدير فأي نعمة تكون لله على العبد؟ وهل يكون ذلك إلّا بمنزلة من قدّم فالوذجاً إلى ضيف مسموماً فإن ظاهره تكرمة وباطنه بخلاف ظاهره فإن ظاهره وإن كان يعدّ نعمة ولكن لمّا كان باطنه مهلكاً فإنّ أحداً لا يعده نعمة، ومعلوم أن العذاب الدائم أشد ضرراً من ذلك السمّ، وعلى هذا التقدير كيف يُعقل أن تكون لله نعمة على الكافر؟ وإذا لم يكن له عليه نعمة فكيف يليق به أن يأمر رسله بأن [يقولوا][1] لهم: (كيف تكفرون بِمَن أنعم عليكم بهذه النّعم العظيمة؟).

والجواب: أن هذه الوجوه عند البحث يرجع حاصلها إلى التمسّك بطريق المدح والذّم والثواب والعقاب. وهذه الطريق معارضة بوجهين:

الأول: أنه تعالى لما كان عالماً من أبي جهل بأنه لا يؤمن والعلم بعدم الإيمان مع وجود الإيمان ضدان متنافيان لذاتيهما فمع قيام أحد الضدّين يكون التكليف بالضد الثاني تكليف ما لا يطاق وحينئذ يلزمكم كل ما أوردتموه علينا.

الثاني: أن قدرة العبد لما كانت صالحة للإيمان والكفر فترجيح أحد الطرفين على الآخر إن لم يتوقف على مرجح لزم ترجيح الممكن من غير مرجح وهو محال،

---

(1) [يقولوا] في الأصل: يقول.

وإن افتقر إلى مرجح فحدوث ذلك المرجح إن لم يكن بمحدث فقد استغنى الحدوث عن المحدث، وهو نفي الصانع، وإن افتقر إلى محدث فذلك المحدث إن كان هو من العبد لزم التسلسل وإن كان هو من الله فقد لزم الجبر وحينئذ يلزمكم كل ما علينا.

واعلم أن المعتزلي إذا طوّل وعرّض وأبرق وأرعد بأمثال الكلمات التي حكيناها [عنهم][1] فعليك أن تعارضها بهذين الوجهين فإنه لا يمكنه أن يتكلم إذا كان ذكياً فاهماً.

الفائدة الثالثة من هذه الآية: اتفقوا على أن قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ [البقرة:28] المراد منه كنتم تراباً ونطفاً، لأن ابتداء خلق آدم من تراب، وخلق سائر المتكلمين من أولاده إلا عيسى عليه السلام من النطف، لكنهم اختلفوا في أن إطلاق اسم الميت على الجماد حقيقة أو مجاز والأكثرون على أنه مجاز لأنه تشبيه الموات بالميت، والأقلون قالوا: هو حقيقة وهو مروي عن قتادة، قال: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم فأحياهم الله ثمَّ أخرجهم إلى الدُّنيا ثمّ أماتهم الموتة التي لا بدّ منها ثم أحياهم بعد الموت فهما حياتان وموتان.

واحتجوا بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: 2] والموت مقدم على الحياة [على][2] كونه مواتاً والأقرب هو الأول لأنه يقال في الجماد إنه موات ولا يقال إنه ميّت [و][3] يشبه أن يكون استعمال أحدهما في الآخر على سبيل التشبيه؛ قال القفال: وهو كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الدهر: 1] فبيَّن تعالى أن الإنسان كان لا شيء يذكر ثم جعله حياً وسميعاً وبصيراً، ومجازه من قولهم: فلان ميّت الذكر، وهذا أمر ميّت، وسلعة ميّتة إذا لم يكن لها طالب ولا راغب فكذا معنى الآية: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ أي: خاملين لا ذكر لكم لأنكم لم تكونوا شيئاً ثم أحياكم وجعل فيكم سمعاً وبصراً.

الفائدة الرابعة: احتج قوم بهذه الآية على بطلان القول بعذاب القبر؛ قالوا: لأنه تعالى بيّن أنّه يحييهم مرة في الدّنيا وأخرى في الآخرة ولم يذكر فيه حياة القبر.

---

(1) [عنهم] في الأصل: عنكم.
(2) [على] في الأصل: وهو.
(3) [و] زيادة يقتضيها السياق.

والجواب: أن الله تعالى ذكر حياة القبر في هذه الآية؛ لأن قوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ ليس المراد منه حياة القيامة وإلّا كان هذا هو عين قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [ويحصل][1] التكرار بل قوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ إشارة إلى حياة القبر وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارة إلى حياة القيامة. وقال الحسن البصري: قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: 28]، يعني به القيامة فأمّا بعض الناس فقد أماتهم الله تعالى ثلاث مرات نحو ما حكى قوله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259] إلى قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: 259] وكقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: 243] وكقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: 55-56] وكقوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: 73] وكقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: 21] وكقوله في قصة أيوب عليه السلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الأنبياء: 84] فإنه جاء في بعض الروايات أنه ردّ عليه أهله بعد أن أماتهم.

وأقول أيضاً: إن ثبت أن الله تعالى أحيا الذريّة في صلب آدم وخاطبهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] لزم أن يقال: أن هؤلاء الأقوام الذين ذكرناهم قد أماتهم الله تعالى أربع مرات.

الفائدة الخامسة: تمسكت [المجسّمة][2] بهذه الآية وهي قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ على أنه سبحانه في مكان وجهة، وهذا ضعيف، والمراد: إلى حكمه يرجعون، لأن الله تعالى يبعث من في القبور ويجمعهم في المحشر فذاك هو الرجوع، وإنما وصف هذا بأن هذا رجوع إلى الله لأنه رجوع إلى حيث لا يتولى الحكم فيه غير الله كقولهم: رجع الحكم إلى أمير، أي حيث لا يحكم فيه غيره.

الفائدة السادسة: تمسك أهل التناسخ على قدم الأرواح بهذه الآية وذلك لأن الرجوع إلى الله لا يصح إلّا بعد أن يقال: هذه الأرواح كانت قبل تعلقها بالأبدان في حضرة قدس الله وأكدوا هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 28].

---

(1) [ويحصل] في الأصل: وتحصيل.

(2) [المجسمة] في الأصل: الجسمية.

والجواب: أن الأرواح لمّا كانت من عالم الآخرة لا جرم سميت مفارقتها عن أبدانها بالرجوع إلى الله تعالى.

الفائدة السابعة: هذه الآية دالة على وجود الصانع سبحانه فإن الحياة والموت ليستا من أفعال البشر ولا بدّ من مدبّر، وتمام تقريره ما نذكره في باب الاستدلال[1] على الصانع بتكوين بدن الإنسان.

الفائدة الثامنة: تدل هذه الآية على أنه لا قدرة على الإحياء والإماتة إلا لله تعالى، فبطل قول أهل الطبع: أن المؤثر في الحياة والموت هو الطبايع والكواكب والأركان والمزاج وفيه إبطال قول من حكى الله عنه: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: 24].

الفائدة التاسعة: الآية [دالة][2] على صحة الحشر ومنبّهة على الدليل العقلي الدّال على إمكان الحشر والنشر، لأنه تعالى بيّن أنّ هذه الأشياء كانت ميتة فأحياها، فإذا جاز الإحياء بعد الموت في المرة الأولى فلأن يجوز الإحياء في المرة الثانية أولى.

الفائدة العاشرة: الآية دالة على التكليف بالأمر والنهي والترهيب والترغيب والثواب والعقاب.

الفائدة الحادية عشرة: الآية دالة على مسألة الجبر والقدر وتمام القول فيه قد تقدم.

الفائدة الثانية عشرة: الآية دالّة على وجوب الزهد في الدنيا؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة: 28] فبيّن أنه لا بد من الموت ثم ذكر أنّه لا بد بعد هذا الموت من سؤالٍ في القبر ثم ذكر بعد ذلك أنه لا بد من الرجوع إلى الله.

[ولنشر][3] إلى بيان هذه المراتب:

---

(1) في الأصل (في باب الاستدلال على وجود الاستدلال على.. إلخ).
(2) [دالة] في الأصل: الدالة.
(3) [ولنشر] في الأصل: ولنشير.

أما أنه كان ميتاً حين كان نطفة وعلقة ومضغة فإنه لا شك فيه.

وأمّا أنه تعالى أحياه بعد ذلك فهو أيضاً حق فإنّه أحياه وصوره أحسن صورة، وجعله بشراً سويّاً وأكمل عقله وصيّره بصيراً بأنواع المنافع والمضار وملّكه الأموال والأولاد والدور والقصور.

وأمّا أنه تعالى يميته فالأمر ظاهر.

وأمّا إذا أماته فقد أزال عنه كلّ تلك النعم وصيّره بحيث لا يملك شيئاً ولا يبقى في الدنيا عنه خبر ولا أثر ويبقى مدة مديدة في اللحد كما قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون: 100] ينادى فلا يجيب ويستنطق فلا يتكلم، ثم يصير بحيث لا يزوره الأقربون وينساه الأهل والبنون، قال يحيى بن معاذ الرازيّ:

يمرُّ أقاربي بحذاء قبري كأنّ أقاربي لم يعرفوني

وقال أيضاً:

إلٰهي كأنّي بنفسي وقد اضجعت في حفرتها، وتفرق المشيعون من شيّعتها، وبكى عليها غريب لغربتها، وناداها من شفير القبر ذو مودّتها، ورحمها المعادي عند صرعتها، فلم يخف على الناظرين عجز حيلتها، فما رجائي إلّا أن تقول للملائكة: انظروا إلى فريد قد نأى عنه الأقربون، ووحيد قد جفاه المحبّون، أصبح مني قريباً، وفي اللحد غريباً، وكان لي في الدنيا محبّاً وداعياً، ولإحساني إليه عند وصوله إلى هذا البيت راجياً، فأحسن إليّ هناك يا قديم الإحسان، وحقق رجاي فيك يا واسع الغفران.

وأما أنه لا بد من الرجوع إلى الله فلأنه سبحانه يأمر بأن ينفخ في الصّور فيصعق من في السمٰوات ومن في الأرض إلّا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: 43] ثم يعرضون على الله كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: 48] فيقومون خاشعين خاضعين كما قال جلّ وعزّ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: 108].

يقول بعضهم: إذا قمنا من ثرى الأجداث مغبرّة رؤوسنا ومن شدة الخوف متغيرة وجوهنا، ومن أهوال القيامة مطرقة رؤوسنا، ومن طول المدة في القيامة جائعة

بطوننا، وبادية لأهل الموقف سوءاتنا، ومن ثقل الأوزار موقرة ظهورنا، وبقينا متحيّرين في أمورنا، نادمين على ذنوبنا؛ فلا تضعِّف المصاعب بإعراضك عنّا، ولا تمنع غفرانك ورحمتك عنّا يا عظيم الرّحمة يا واسع المغفرة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

اعلم أنه لما ذكر الحياة التي هي أصلُ جميع النّعم أتبعه بذكر المنتفع به وهو المنافع المخلوقة في الأرض، وما أحسن هذا الترتيب! فإن الانتفاع بالأرض والسّماء لا يكون إلّا بعد حصول الحياة، أمّا لفظ الخلق فقد مرّ تفسيره، وأمّا قوله: ﴿لَكُمْ﴾ فهو يدلّ على أنّ كلّ ما خلقه الله في الأرض إنما خلقه لمنفعة المكلفين: إمّا في الدّنيا وإمّا في الدّين: أما في الدنيا فلأجل مصالح أبداننا وليتقوّى به المكلف على الطاعات، وأما في الدّين فبأن يستدلّ المكلف بهذه الأشياء ويعتبر بها في إثبات الصانع ومعرفة قدرته وحكمته.

وقوله تعالى: ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي كلّ ما في الأرض ومنها ما يتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال، ومنها ما يتصل بضروب الحِرف والصناعات والأمور التي استنبطها العقلاء. فبيّن تعالى: أنّ كلّ ذلك إنما خلقها لينتفع بها المكلف كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: 13] فكأنه ﷻ قال: كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم؟ ثم كيف تكفرون بالله وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً؟ يقال: كيف تكفرون بقدرة الله على إعادتكم وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً؟ فكيف يعجز عن إعادتكم؟ فالله سبحانه ذكر تفاصيل هذه المنافع في سور مختلفة كما قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ [عبس: 25 - 26]، وسنستقصي الكلام في شرح هذه التفاصيل في باب الاستدلال على وجود الصانع سبحانه بأحوال الحيوان والنبات، **ثم ههنا فوائد:**

الفائدة الأولى: اللام في قوله لكم لام الحكمة والغرض، اعلم أنه ﷻ ذكر هذه اللام في مواضع:

أحدها: في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56].

الثاني: أن أشرف العبادات بعد الإيمان بالله الصلاة؛ فذكر الله تعالى هذه اللام

فيها فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: 14] وذكرها أيضاً [في][1] الصوم قال عليه أفضل السلام حاكياً عن الله تعالى: «**الصوم لي**».

ثم إن الأمّة مجمعة على أنه يجب على المصلّي أن يقول بقلبه: أصلي لله، ولو قال: أصلي لطلب الجنة أو للهرب مِنَ النّار لم تصح صلاته.

ثم كأنّه ﷻ قال: عبدي! إنّك إن وفيت بموجب هذه اللامات ملّكتك الدنيا والآخرة بلام التمليك، أمّا الدنيا فهو [قوله][2]: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وأمّا الآخرة فقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

والحاصل أنه ﷻ خلقك لخدمته وخلق كل ما سواك لأجلك؛ فإن أنت صرفت نفسك إلى خدمته فهو ﷻ يصرف الدنيا والآخرة إلى جهة غرضك كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[طه: 132].

النوع الثاني: من الاستدلال بأحوال الأرض على وجود الصانع المختار كون الأرض مقرّاً للحيوانات ومسكناً لها، والله ﷻ ذكر هذا المعنى في آي كثيرة، قال في أول سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة:22] . وقال في سورة طه حكايةً عن موسى عليه السلام حين استدلّ بها على وجود الصانع: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: 53] وقال في سورة عمّ يتساءلون ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ وقال في سورة النمل [61] ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال في سورة الملك [15] ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ وقال في سورة نوح عليه السلام: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:19-20]. وقال في سورة المرسلات: [25 ـ 28]: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

واعلم أنه يجب علينا أن نبحث عن هذه الصفات التي ذكرها الله تعالى للأرض:

الصفة الأولى: كون الأرض فراشاً، واعلم أنه يعتبر في كون الأرض فراشاً

---

(1) [في] زيادة يقتضيها السياق.

(2) [قوله] زيادة يقتضيها السياق.

للحيوانات شرائط:

الشرط الأول: كونها ساكنة؛ وذلك لأنها لو كانت متحركة إلى السفل والهبوط لكان من دفع رجله عن الأرض فأراد بعد ذلك أن يضعها على الأرض لم يقدر على ذلك ألبتة إلّا بإرادة الله؛ لأنا بيّنا أنّه إذا تحرك شيئان إلى السفل وأحدهما أخف من الآخر لم يصر الأخف إلى الأثقل فعلى هذا كان مصير [المشي][1] متعذراً للحيوانات على الأرض وإمّا إن كانت متحركة بالاستدارة تعذر المشي أيضاً على الأرض؛ لأنها إذا تحركت بالاستدارة كان الهواء المحيط شديد التموج بسبب حركتها، فعند ذلك يصير الإنسان وغيره من الأجسام الصغيرة متحركة نحو جهة حركة الأرض بالاضطرار وتمتنع الحركة على خلاف تلك الجهة، وعلى هذا التقدير يصير المشي متعذراً ونقل الأقمشة من موضع إلى موضع متعذراً، وأما إذا كانت الأرض واقفة ساكنة لا جرم كان المشي ممكناً ونقل الأقمشة من مكان إلى مكان على حسب المراد والمصلحة مهيئاً، فحينئذ يصلح كون الأرض مسكناً للحيوانات.

ثم إذ قد عرفت أنها ساكنة لا بسبب علاقة فوقها ولا دعامة تحتها وإلّا لعاد الكلام في تلك العلاقة وتلك الدعامة وللزم التسلسل وهو محال ثبت[2] أن مُمسكها هو الله ﷻ بقدرته وإرادته وقوته وهو المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [فاطر: 41] وقد تقدم الاستقصاء في ذلك.

الشرط الثاني: في كون الأرض فراشاً للحيوانات أن لا تكون في غاية الصلابة لأنّها لو كانت في الصلابة كالحجر لكان النوم عليها والمشي عليها مما يؤلم البدن، وأيضاً لم ينبت فيها أنواع النبات والأشجار، وأيضاً لكان يتسخن شديداً في الصيف ويبرد في الشتاء فما كان يصلح لسكنى الحيوانات، وأيضاً لكان يتعذر إيجاد الأبنية والمساكن، وكان يتعذر حفرها وتركيبها كما يُراد ويوافق المصلحة؛ فثبت أن الأرض لو كانت صلبة حجرية لما كان يصلح أن تكون فراشاً للإنسان لهذه الوجوه.

ثم تأمّل أنّ أعز الأشياء للإنسان الذهب والفضة والياقوت والزمرّد، ولو أنّا

---

(1) [المشي] في الأصل: الشيء.

(2) جواب إذا في الأصل: (وإذا ثبت أنها ساكنة بلاد عامة ولا علاقة ثبت أن ممسكها) فحذفنا الزيادة تقويماً للتعبير.

قدرنا أن الأرض كانت مخلوقة من هذه الأشياء فاتت المصالح بأسرها وبطلت المنافع، وبهذا يظهر أنه لا نسبة للتراب في كثرة المنافع والمصالح إلى هذه التي يظن الإنسان كونها في غاية الشرف والنفاسة.

وأيضاً من شرط كون الأرض فراشاً لنا أن لا تكون في غاية الرّخاوة كالماء وسائر الأشياء التي يغوص الإنسان فيها. فثبت أنّ الشرط في كونها فراشاً للإنسان وغيره كونها بهذه الصفة التي خلقها الله عليها.

الشرط الثالث: في كونها فراشاً لنا أن لا تكون في غاية الشفافية واللطافة، فإن الشفاف لا يستقر عليها النور وما كان كذلك لا يقبل السخونة من الشمس والكواكب فيبقى في غاية البرد فلا يصلح لأن يكون مقراً للحيوانات، وأيضاً ما جعلها في غاية الصقالة والبراقة وإلّا كان يحترق من يقرب منها بسبب انعكاس أشعة الشمس عنها كما تحترق القطنة التي تقرب من البلورة المخروطة، أمّا لمّا جعل الأرض كثيفة غبراء استقر النور على وجهها فحصل نوع من السخونة فيها، ولما كانت كثيفة لم تنعكس الأشعة منها فصار متوسطاً في الحرّ والبرد فصلح أن تكون فراشاً للحيوانات.

الشرط الرابع: أن يكون خارجاً من الماء وذلك لأن الإنسان وغيره من الحيوانات البرّية لا يمكن أن يعيش في الماء، فالأرض لا يمكن أن تكون مسكناً للإنسان وسائر الحيوانات إلّا إذا كانت بارزة من الماء.

ثمّ إن طبع الأرض يقتضي أن تكون غائصة في الماء فكان يجب في كلّ الأرض أن تكون البحار محيطة بها، ثم لأنه سبحانه بكمال قدرته ونهاية حكمته وغاية رحمته لعباده قلب طبع الأرض وأخرج بعض جوانبها من الماء كالجزيرة [البارزة][1] حتى صلحت لأن تكون فراشاً لنا [فهذه][2] جملة الشرائط لمن تعتبره في كون الأرض فراشاً لنا.

الصفة الثانية: من الصفات التي ذكرها الله تعالى للأرض كونها مهداً والمراد

---

(1) [البارزة] في الأصل: الباردة.

(2) [فهذه] في الأصل: فهذا.

أنه تعالى جعلها بحيث يسهل على العباد أن يتصرفوا بالقيام والقعود والزراعة وسائر جهات المنفعة وهو قريب من الصفة الأولى، إلاّ أن المقصود من تسميتها بالمهد أن الأرض للخلق كالمهد للصبيّ وهو الذي يُمهّد له فينام عليه.

الصفة الثالثة: قوله في عمّ يتساءلون: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ واعلم أن المهاد مصدر ثم فيه وجوه:

الأول: أن يكون المراد في هذه الآية الممهود، والمعنى: ألم نجعل الأرض ممهوداً وهذا من باب تسمية المفعول بالمصدر كقولك: هذا صرف الأمير.

والثاني: أن تكون الأرض وصفت بهذا المصدر كما يقال:

زيد جود وكرم كأنه لكماله في تلك الصفة صار عين تلك الصفة.

والثالث: أن يكون المراد ذات مهاد.

الصفة الرابعة: قوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

اعلم أنه تعالى ذكر من منافع الأرض في هذه الآية أموراً أربعة:

المنفعة الأولى: كونها قراراً وهذا أيضاً قريب من كونها فراشاً والشرائط المذكورة هناك معتبرة ههنا أيضاً ونزيد ههنا شرائط أخرى:

فالشرط الأول: أنه تعالى قال: دحاها وسوّاها للاستقرار قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾ [النازعات: 30 ـ 33]. وقال في سورة حم فصّلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: 9-10].

الشرط الثاني: أنه ﷻ جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الفلك الأعظم بحيث تبعد تارة من سمت الرأس وتقرب أخرى، وبسبب هذا القرب والبعد تختلف الفصول الأربعة، وبسبب اختلاف هذه الفصول صلحت البقاع لأن تكون مسكناً للحيوانات على ما بيّنا شرح هذا المعنى في ذكر منافع الميل في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: 30].

الشرط الثالث: أنه تعالى جعل الأرض كفاتاً للأحياء والأموات على ما سنذكر تفسير [الكفات][1] إن شاء الله تعالى ولو لم تكن الأرض كذلك ما صلحت أن تكون قراراً للحيوانات.

المنفعة الثانية: من منافع الأرض التي ذكرها الله سبحانه في هذه الآية قوله: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾.

واعلم أن أقسام المياه [النابعة][2] عن الأرض أربعة:

الأول: مياه العيون السيالة، وهي نبعت من أبخرة كثيرة المادة قوية الانتفاع تفجر الأرض بقوة ثم لا تزال يستنبع جزءًا جزءًا منها.

الثاني: ماء العين الراكدة، وهي تحدث من أبخرة بلغت قوتها إلى أن اندفعت على وجه الأرض ولم يبلغ من قوتها وكثرة مادتها أن يطرد تاليها سابقها.

الثالث: مياه القناة والأنهار، وهي متولدة من أبخرة ناقصة القوة عن أن [ينشر][3] الأرض فإذا أزبل عن وجهها ثقل التراب وصادفت حينئذ تلك الأبخرة منفذاً تندفع إليه بأدنى حركة.

الرابع: مياه الآبار وهو بعينها كمياه القنى إلاّ أنها لم يجعل لها ميل إلى موضع يسيل إليه، ونسبة القنى إلى الآبار كنسبة العيون السائلة إلى العيون الراكدة.

وقد ظهر [من][4] مجموع ما شرحنا أنّه لولا صلابة الأرض لما اجتمعت تلك الأبخرة في باطنها، ولولا اجتماعها في باطنها لما حدثت هذه العيون في ظاهرها.

المنفعة الثالثة للأرض: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ والمراد منها الجبال، يقال: أكثر العيون والسحب والمعدنيات إنما يتكوّن من الجبال أو فيها يقرب منها.

أمّا العيون فلأن الأرض إذا كانت رخوة [تفلتت][5] الأبخرة عنها فلا يجتمع

(1) [الكفات] في الأصل: الكفاية.
(2) [النابعة] في الأصل: المنبعة.
(3) [ينشر] في الأصل: ينشيء.
(4) [من] زيادة يقتضيها السياق.
(5) [تفلتت] في الأصل: تلفتت.

منها قدر يعتدّ به، فإذاً هذه الأبخرة لا تجتمع إلاّ في الأرض الصّلبة، والجبال أصلب من الأرض، فلا جرم كانت أقواها على حبس هذه [الأبخرة][1] حتى يجتمع ما يصلح أن يكون مادة للعيون ويشبه أن يكون مستقراً لجبل مملوًّا من ماء ويكون الجبل في حقنه الأبخرة مثل الأنبيق الصلب المعدّ للتفطّر لا تدع شيئاً من البخار يتحلل، ونَفَسُ الأرض التي تحته كالقرع والعيون كالأدباء والبحار كالتوابل ولذلك فإن أكثر العيون إنما تنفجر في الجبال وأقلها في البراري، ولذلك لا يكون إلاّ إذا كانت الأرض صلبة، وأما أن السُحب إنّما يكون في أكثر الأمر في الجبال فلأسباب ثلاثة:

الأول: أن في باطن الجبال من النداوة ما لا يكون في باطن الأرض من الرّخوة.

الثاني: أن الجبال بسبب ارتفاعها تكون أبرد، فلا جرم تبقى على ظواهرها من الأبراد والثلوج ما لا يبقى على سائر الأرضين.

الثالث: أن الأبخرة المتصاعدة من الجبال تكون محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتخلل، وإذا ثبت ذلك ظهر أنّ أسباب كثرة السحب في الجبال أكثر لأن المادة فيها ظاهراً وباطناً أكثر والاحتقان أشدّ، والسبب المخلّل [و][2] هو الحرّ أقل؛ فلذلك كانت السُحب في الجبال أكثر، وأمّا المعدنيات المحتاجة إلى أبخرة تكون اختلاطها بالأرضية أكثر ويبقى ذلك الاختلاط مدة طويلة يتم النضخ فيها فلا شيء لها في هذا المقصود كالجبال.

المنفعة الرابعة للأرض: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: 61].

فاعلم أن المقصود من ذلك الحاجز أحد أمور أربعة:

أحدها: أن لا يفسد العذب بسبب اختلاطه بالمالح.

الثاني: أن ينفع ذلك الحاجز.

الثالث: المؤمن في قلبه بحران: بحر الحكمة والإيمان، وبحر الشهوة والطغيان، والحق ﷻ بتوفيقه جعل بينهما حاجزاً لكيلا يفسد أحدهما الآخر، وقال

(1) [الأبخرة] في الأصل: البخار.
(2) [و] زيادة يقتضيها السياق.

بعض الحكماء في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمٰن: 19-20]. قال: عند عدم البغي بين البحرين يخرج اللؤلؤ والمرجان فكذلك عند عدم البغي في القلب يخرج الدين والإيمان.

واعلم أن وجه الاستدلال بهذه الأحوال على إثبات الصانع والحكيم ظاهر؛ وذلك لأنه ﷻ دبّر أجزاء الأرض على هذه الأحوال المحكمة المتقنة الموافقة لمصالح العباد، وذلك لا يمكن إلّا بمشيئة نافذة وقدرة كاملة وحكمة بالغة:

الصفة الخامسة للأرض: قوله تعالى في سورة الملك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾.

واعلم أن الذّلول من كلّ شيء المنقاد المطيع لك، الذي يذلّ لك، ومصدره الذل وهو الانقياد واللين، ومنه يقال: دابة ذلول، وفي وصف الأرض بالذلول وجوه:

الأول: أنه تعالى لم يجعلها صخرة خشنة يمتنع المشي عليه كما يمتنع المشي على وجوه الصخور الخشنة.

والثاني: أنه جعلها لينة بحيث يمكن حفرها وبناء الأبنية منها كما يراد، ولو كانت حجرية صلبة لتعذر ذلك.

والثالث: أنك تطرح عليها كلّ قبيح وهو يخرج لك كلّ طعام لذيذ.

والرابع: أنها كفات الأحياء والأموات، وهذه الوجوه قد شرحناها فيما تقدم، ثم قال تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾.

والمُفسرون ذكروا في مناكب الأرض وجوهاً:

الأول: قال صاحب الكشاف: المشي في مناكبها مثل لفرط التذلّل، لأن المُنكبّين وملتقاهما من المغارب أدق شيء من البعير وأبعده من إمكان المشي عليها فإذا صار البعير بحيث يمكن المشي على منكبه فقد صار نهاية في الانقياد والطاعة، فظهر أن قوله تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ كناية عن كونها نهاية في الذلوليّة.

والثاني: هو قول قتادة والضحاك وابن عباس أن مناكب الأرض جبالها

وآكامها، وسميت الجبال [مناكب][1] [لأن مناكب][2] الإنسان شاخصة والجبال أيضاً شاخصة، والمعنى أنّي سهلت عليكم المشي في مناكب الأرض وهي أبعد أجزائها عن التذلل فكيف الحال في سائر أجزائها؟

والثالث: أن مناكبها هي الطرق والفجاج والجوانب والأطراف وهو قول الحسن ومجاهد.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي مما خلقه الله لكم رزقاً في الأرض: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي ينبغي أن يكون مكثكم في الأرض وأكلكم من رزق الله مكث من يعلم أن مرجعه إلى الله، وأكل من يتيقّن أن مصيره إلى الله، والمراد التحذير من الكفر والمعاصي وطول الأمل.

الصفة السادسة للأرض: قوله تعالى في سورة نوح عليه السلام: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:19-20]. أي طرقاً واسعة، واحدها فج وهو قريب ممّا تقدم.

الصفة السابعة للأرض: قوله تعالى في سورة المرسلات: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾، ومعنى الكفت في اللغة الضمّ والجمع، يقال: كفتُّ الشيء أي ضممته، ويقال: جراب كفيت إذا كان لا يضيّع مما يجمع فيه، والكفات اسم ما [يكفتْ][3] كقولهم الضمام والجماع لما يضم ويجمع يقال: هذا الباب جماع الأبواب، وبه[4] انتصب أحياءً وأمواتاً كأنه قيل: كافته أحياء وأمواتاً [أو][5] بفعل مضمر يدل عليه، وهو تكفت، هذا هو اللغة وفي المعنى وجوه:

الأول: أنها تكفت الأحياء على ظهرها والأموات في بطنها والمعنى أن الأحياء يسكنون في بيوتهم والأموات يدفنون في قبورهم ولهذا المعنى كانوا يسمون الأرض أمًّا لأنها في ضمها الناس كالأمّ التي تضم ولدها وتكفله، ولمّا كانوا يُضمون إليها

(1) [مناكب] في الأصل: مناكبه.
(2) [لأن مناكب] زيادة يقتضيها السياق.
(3) [يكفت] في الأصل: تكييف.
(4) وبه: أي بقول: كفاتًا.
(5) [أو] في الأصل: و.

جعلت كأنها تضمّهم.

والثاني: أنها كفات الأحياء بمعنى أنها تكفت ما ينفصل من الأحياء من الأمور المستقذرة.

الثالث: أنها كفات الأحياء بمعنى أنّها جامعة لما يحتاج إليه الإنسان في حياته من مأكل ومشرب لأن كلّ ذلك يخرج من الأرض، وأيضاً المساكن الجامعة للمصالح الدافعة للمضار منها.

الرابع: أن قوله: ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات:26]. راجع إلى الأرض، فالحيُّ ما أنبتت والميّت ما لم تنبت.

وبقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: لِمَ قيل ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ على سبيل التنكير وهي كفات الأحياء والأموات جميعًا؟

والجواب: أن هذا من باب تنكير التفخيم كأنه قيل: تكفت أحياءً لا يُعَدّون وأمواتاً لا يُحصرون.

السؤال الثاني: هل تدل الآية على وجوب قطع [يد][1] النبّاش؟

والجواب: قال القفال: أن ربيعة قالت: دلت الآية على أن الأرض كفات الميّت فيكون حرزاً له والسارق إذا سرق من الحرز وجب عليه القطع.

الصفة الثامنة للأرض: قوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طٰهٰ: 55] فهي لنا كالأمّ الحاضنة التي تربينا حالتي الحياة والموت.

النوع الثالث: من الاستدلال بأحوال الأرض على وجود الصّانع الحكيم سبحانه وتعالى، اعلم أن هذه الأحوال من وجوه:

الأول: أن الأشياء المتولدة منها من المعادن والنبات والحيوان والآثار العلوية

---

(1) [يد] زيادة يقتضيها السياق.

والسفلية كثيرة لا يعلم تفاصيلها إلا الله تعالى.

الثاني: من منافع الأرض الماء [وهو][1] لرقته ورطوبته لا يقبل الشكل والتصوير وإذا [خلط الماء][2] والتراب حصل في الماء نوع قوام واستمساك وحصل في التراب قبول الأشكال فيكون الطين قابلاً للتشكل والتخطيط كما قال تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: 71] وقال في حق عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: 110].

الثالث: اختلاف بقاع الأرض، فمنها أرض رخوة وصلبة ورملية وسبخة وحرّة[3]، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: 4]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: 58].

الرابع: اختلاف ألوانها، فأحمر وأبيض وأسود وأغبر ورماديّ اللون كما قال تعالى: ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: 27].

الخامس: انصداعها بالنبات كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: 12].

السادس: كونها خازنة للماء المنزل من السماء، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: 18]. وقال: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: 30].

السابع: العيون والأنهار العظام والصغار التي في الأرض، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرّعد: 3].

الثامن: ما فيها من المعادن والفلزات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: 19] ثم بين ذلك تمام البيان فقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21].

---

(1) [وهو] زيادة يقتضيها السياق.

(2) [خلط الماء] في الأصل: خلطه في الماء.

(3) حرّة: أرض لا رمل فيها.

التاسع: الزرع والأشجار وما ينبت من الحب والنوى قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: 95] وقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: 25].

ثم إن الأرض لها طبع الكرم؛ لأنك تدفع إليها حبة واحدة وهي تردها عليك سبعمائة، قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: 261].

العاشر: حياتها بعد موتها، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ [السجدة: 27]. وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: 33].

الحادي عشر: ما عليها من الدواب المختلفة الألوان والصور والخلق وإليه الإشارة بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [لقمان: 10].

الثاني عشر: ما فيها من النبات المختلفة الألوان وطبائعها وأنواعها [ومنافعها][1] وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: 7]، فاختلاف ألوانها دلالة واختلاف طعومها دلالة واختلاف روائحها دلالة واختلاف منافعها دلالة، فمنها قوت البشر ومنها قوت البهائم كما قال تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: 54].

ثم إن مطعوم البشر منقسم إلى أقسام فمنها الطعام ومنها الأدم ومنها الفاكهة ومنها الدواء ومنها الأنواع المختلفة؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: 10].

وأيضاً منها كسوة البشر، لأن الكسوة إما نباتية وهي القطن والكتان، وإما حيوانية وهي الشعر والصّوف والإبريسم والجلود، وهي من الحيوانات التي نبتها الله تعالى في الأرض، والملبوس من الأرض والغذاء من الأرض ثم قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفيه إشارة إلى منافع كثيرة لا نعلمها نحن والحق ﷻ هو العالم بها.

---

(1) [ومنافعها] في الأصل: ومانعها.

ثم إنه جعل الأرض ساترة لفضائحك بعد موتك، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: 25-26]، ثم إنه ﷻ جمع هذه المنافع العظيمة للسماء والأرض [تسخيرًا][1] للآدمي كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: 13].

الثالث عشر: ما فيها من الأحجار المختلفة، ففي صغارها ما تصلح للزينة فتجعل فصوص الخواتم ومن كبارها ما يتخذ للأبنية والأقبية وانظر إلى الحجر الذي يستخرج به النار مع كثرته وانظر إلى الياقوت مع عزته، ثم [انظر][2] إلى كثرة النفع بذلك الحقير وإلى قلّة النفع بذلك الشريف.

الرابع عشر: ما أودع الله فيها من المعادن الشريفة كالذهب والفضة والملح والنفط.

ثم تأمل فانظر؛ فإنّ البشر استخرجوا الحرف الدقيقة والصنائع الجليلة، واستخرجوا السمكة من قعر البحر واستنزلوا الطير من أوج الهواء ثم عجزوا عن إيجاد الذهب والفضة.

والسبب فيه أن لا فائدة في وجودهما إلا لقيمتهما، وهذه الفائدة لا تحصل إلا عند العزة، والقدرة على إيجادها تبطل هذه الحالة؛ فلذلك ضرب الله دونهما باباً مسدوداً، إظهاراً لهذه الحكمة وإبقاءً لهذه النعمة، وأما الذي لا مضرة على الخلق في إيجاده فقد أقدرهم الله عليه مثل إيجاد الشبه من النحاس وإيجاد الزجاج من الرمل، فإذا تأمل العاقل في هذه اللطائف والعجائب اضطر إلى افتقار هذه التدابير إلى صانع حكيم مقتدر عليم ﷻ عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

الخامس عشر: كثرة ما يوجد على الأراضي والجبال من الأشجار التي تصلح للبناء والسقف ثم للحطب [لاشتداد][3] الحاجة إليه في الخبز والطبخ.

وقد نبَّه الله على دلائل الأرض ومنافعها بألفاظ لا يبلغها البلغاء ولا يقدر عليها الفصحاء فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا

(1) [تسخيراً] في الأصل: سخر.
(2) [انظر] في الأصل: النظر.
(3) [لاشتداد] في الأصل: وأما اشتداد.

زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الرعد: 3].

النوع الرابع من مباحث الأرض: اختلفوا في أنّ السماء أفضل أم الأرض؟

قال بعضهم: السماء أفضل من وجوه:

الأول: أن السماء متعبد الملائكة وما فيها بقعة عُصي الله فيها؛ حتى إن إبليس لمّا أظهر الكفر أُخرج من السماء وقيل له: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: 34]، وآدم عليه السلام من الزلّة قال تعالى له: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا﴾ [البقرة: 38] وقال: لا يسكن في جواري من عصاني.

الحجة الثانية: أنه تعالى وصف السماء بصفات دالة على العظمة ولم يذكر مثلها في الأرض فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32]، ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبإ: 12]، ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: 3]، ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32]، ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: 61].

ثم ذكر عاقبة أمرها: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: 9]، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: 11]، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ [الأنبياء: 104]، ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: 8].

وأمّا الموضع الذي ذكر فيه حال الأرض فقد ذكر تعالى الأرض بما يدل على عظم حال السماء فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: 67] ومعلوم أن اليمين أشرف.

الحجة الثالثة: أنه تعالى جعل الأرض موضع السجود، والسمٰوات قبلة الدعاء فالأيدي ترفع إليها، والوجوه تتوجه نحوها والقلوب متعلقة بها.

الحجة الرابعة: أنّها منزل الأنوار ومحل الصفا والأضواء ومصونة عن الخلل والفساد ومحل الطهارة والعصمة والأرض ليست كذلك.

الحجة الخامسة: السمٰوات مؤثرة غير متأثرة والأرضون متأثرة غير مؤثرة والمؤثر أشرف من المتأثر، ومما يدل على أن السمٰوات مؤثرة قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: 15] وقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: 36-37].

الحجة السادسة: أن السمٰوات مزينة بثمانية أشياء، ثلاثة منها محسوسة وهي الشمس والقمر والنجوم، وخمسة منها غير محسوسة وهي العرش والكرسي واللوح والقلم والجنة، وأمثال هذه الأشياء غير موجودة في الأرض فلا تناسبها ولا تشاكلها.

الحجة السابعة: أنه تعالى ذكر أمر السمٰوات والأرض في كتابه وفي كل المواضع قدّم ذكر السمٰوات على الأرض. وذلك يدلّ على المقصود.

وقال بعضهم بل الأرض أفضل واحتجوا عليه بوجوه:

الحجة الأولى: أنّه وصف بقاعاً من الأرض بالبركة: أحدها قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: 96] وثانيها قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ [القصص: 30] وثالثها قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: 1]، ورابعها وصف [أرض][1] الشام بالبركة فقال: ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: 137] وخامسها وصف جملة الأرض بالبركة فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَـٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: 9 - 10].

فإن قيل: وأي بركة في الفلوات الخالية والمفاوز المهلكة؟

قلنا: لأنها مساكن الوحوش ومرعاها، ولولاها لاختلطت السباع بالناس في مساكنهم إذا احتاجوا إليها.

وهذه الحجة ضعيفة لأن الله تعالى أثبت وصف البركة في السماء وهو قوله: ﴿بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: 96].

الحجة الثانية: أنه تعالى خلق الأنبياء المكرمين من الأرض على ما قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: 55] ولم يخلق من السماء نبيّاً لأنه قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾.

الحجة الثالثة: أنه تعالى أكرم نبيّه بها فجعل الأرض كلها له ولأمته مسجداً وجعل ترابها طهوراً.

---

(1) [أرض] في الأصل: أهل.

النوع الخامس من المباحث على تعظيم حال السماء والأرض:

اعلم أنه ﷻ بيّن صفات جلاله ونعوت كبريائه بالإضافة إلى السمٰوات والأرض، وهذه الآيات كثيرة في القرآن العزيز.

أما القسم الأول [من][1] الآيات الدالة على الخلق قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1] ثم بيَّن أن خلق السمٰوات والأرض أعظم من خلق الناس فقال جلّ وعلا: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57] وقال في سورة النازعات [27]: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ وقال في سورة يسّ [81]: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ ثم بيَّن أنه خلقها بالحق فقال في سورة النحل [3]: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ ثم بيّن في سورة صٓ أنه ما خلقها إلا بالحق فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [صٓ: 27] ثم قال في سورة الدخان [38]: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

ثم بيّن أن الكل تحت تدبيره فقال: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: 25] ثم بيَّن أن في خلق السمٰوات والأرض أسراراً عجيبة، فقال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وقال في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾، ثم بيّن أنّه ما اطلع أحد على أسرار هذا الخلق فقال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: 51] فهذا ما يتعلق بصفة الخلق.

القسم الثاني: ما يتعلّق بصفة الربوبية، قال موسى عليه السلام في سورة الشعراء: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 35]، قال بعضهم: الله نور السمٰوات والأرض مزيّن أهل السمٰوات والأرض كما يقال: فلان نور هذا البلد إذا كان سبباً لنظم مصالح أهل البلد، وقال بعضهم: الله هادي أهل السمٰوات والأرض؛ واحتجّ على هذه القراءة بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ ثم بين أنه تعالى غير عاجز عن التدبير في شيء منهما، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(1) [من] زيادة يقتضيها السياق.

وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 44].

القسم الثالث: ما يتعلق بالمِلك فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [ثم ذكر][1] أنه مالك الخزائن فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: 7] ثم ذكر التفصيل فبيّن أنه ملك الجنود فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: 4] ثم ذكر أنه المالك لكل العقلاء فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: 26] ثم أكد لنفسه هذه العبودية بقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: 15] وقال أيضاً: ﴿يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: 18] ثم بيّن أنه تعالى يجعل البعض مسخراً للبعض بل يجعل القويّ مسخراً للضعيف قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: 16 ـ 17] ثم بين فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: 13] ثم بيّن أنه لا يعجزه شيء فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت: 22] وقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: 35].

القسم الرابع: ما يتعلق بالمُلك وهو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

واعلم أن الفرق بيّن الملك والمُلك موجود على ما هو معلوم في تفسير قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾، ثم بيّن أنه كما هو الملك فهو أيضاً مالك المُلك، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: 26].

ثم بيّن بقاء المُلك وكثر بركاته، فقال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزخرف: 85].

القسم الخامس: ما يتعلق بالعلم وهو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [هود: 123] ثم بيّن أنه يعلم الغيب والشهادة فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

---

(1) [ثم ذكر] زيادة يقتضيها السياق.

[التغابن: 4] ثم بيّن إحاطة علمه فقال: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبا: 3] ثم بيّن جلالة هذا العلم فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنبياء: 4] ثم بيّن أنه لا يخفى عليه شيء ألبتة فقال: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: 5].

القسم السادس: ما يتعلق بكيفية التدبير قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: 5].

القسم السابع: ما يتعلق بالتسبيح والتحميد قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: 24] وقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التغابن: 1] وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا﴾ [الروم: 18].

القسم الثامن: ما يتعلق بالكبرياء قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: 37] وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: 27] وقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: 255] وقال: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: 83] وقال للسموات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11] وقال: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: 87] وقال: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: 68] وقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: 4] وقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: 72].

كل ذلك يدل على نهاية الجلال والهيبة والعظمة وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النجم: 26] ونظيره: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: 255] وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: 38] وقال: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 108] وقال: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: 44] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: 84].

القسم التاسع: ما يتعلق بالإلٰهية [قال تعالى]: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: 3] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾.

القسم العاشر: ما يتعلق بالنظر والاستدلال قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: 105] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 185] وقال في التنبه على العزة: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: 29].

واعلم أن إكثار الله تعالى من الآيات في ذكر السمٰوات والأرض في القرآن يدل على عظم شأنهما، وعلى أنه له سبحانه فيهما أسراراً عجيبة وحكماً بالغة لا تصل إليها أفهام الخلق ولا عقولهم.

فإن قيل: فما الحكمة في أنّه سبحانه عرّف صفات جلاله وقدسه وعظمته بذكر السمٰوات والأرض؟

قلنا: الحكمة أن ذات الله وصفاته وعزته وعظمته غير مشاهدة للخلق ابتداء، بل لا سبيل إلى معرفتها إلا بالدليل والبرهان، وكلما كانت الآثار أجلّ وأعظم كان ذلك أدلّ على عظمة المؤثرات؛ فلما كان أعظم الموجودات المحسوسة هو السمٰوات والأرض لا جرم عرّف الله سبحانه كمال قدرته ونهاية علمه وحكمته بذكر السمٰوات والأرض، فهذا تمام القول في هذا الموضع.

النوع السادس: من شرح المنافع الحاصلة من مجموع السماء والأرض اعلم أن السماء والأرض مع غاية بعد كل واحد منهما عن الآخر متعاونان على تحصيل مناظم العلم ومصالحهم.

وبيانه من وجوه:

الأول: اعلم أن الفوق هو الذي يلي جهة السماء والتحت هو الذي يلي جهة الأرض، والجهات لا توجد إلا بالفوق والتحت، فالسماء والأرض متعاونان على تحصيل وجود الجهات.

وإذا كان حصول الجهات من توابع حصول السماء والأرض فهما [منزهتان][1] عن الجهات والأحياز.

الثاني: أن السماء والأرض متعاونان على تحصيل النبات، فالسماء كالأب

(1) [منزهتان] في الأصل: منزها.

فتتنزل من صلبه القطرة وتقع في الأرض، فإذا وقعت الحبة في ذلك الطين أثرت نداوة الطين في تلك الحبة وكذلك السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداوة إلى باطن الحبة، وبسبب تلك السخونة انتفخت الحبة وربت وعظمت فانفلقت فلقةً من فوقها وفلقة من تحتها، فالانفلاق الفوقاني تخرج منه ساق الشجر، والانفلاق التحتاني يخرج منه عروق الشجر.

إذا عرفت هذا فنقول: لو وقعت الحبة في أرض يابسة لم يحصل أصلاً ولو وقعت في الطين ولكن بحيث لا تصل إليها تأثيرات الهواء أو شعاعات الكواكب لا يحصل المقصود أصلاً، ألا ترى أن الأشجار التي تكون في ظل مانع من شروق نور الشمس والقمر عليها فإنها تكون فاسدة ناقصة، والشجرة الواقعة في ظل شجرة كبيرة تكون أيضاً فاسدة.

وإذا تأملت علمت أنّ هذا المقصود لا يحصل إلّا إذا وجدت كرة الأرض ووجدت كرة الماء وكانا متقاربين بحيث يمتزجان.

ولا بد من وصول الهواء إليه إلّا أن الهواء جرم خفيف صاعد فلا يغوص بالطبع في عمق الطين؛ فدبر الحكيم الرحيم تدبيراً لهذا وهو أن حرّك الهواء حتى صار ريحاً ثم إن الريح تموّج منه، فإذا تموجت عرض لبعضها في أثناء ذلك التموج أن نفذه في عمق الأرض وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: 22] وإنّما إلقاحها في إيقاع الازدواج بين الأرض والماء والهواء.

ثمّ لما كان ذلك لا يفيد المقصود إلّا مع حرارة [لطيفة][1] سماوية فعند ذلك لا بد من حرارة الربيع في الإنبات ومن حرارة الصيف في الإنضاج؛ فقد عرفت أنّ المقصود لا يحصل إلّا عند اجتماع تأثيرات العناصر الأربعة السفلية وتأثيرات الشعاعات الفلكية ثم عند اجتماع هذه الأسباب العلوية والسفلية لا يحصل المقصود إلّا بقدرته ولا يتكون المطلوب إلاّ بإنفاذ مشيئته؛ وذلك لأن من الأرض الواحد والماء الواحد والهواء الواحد وتأثير الشمس والقمر في الكلّ على السويّة يخرج أنواع من النبات مختلفة في الطبع والطعم واللون والرائحة، فدل ذلك على أن العناصر والأفلاك أسباب ظاهرة والمؤثر في الحقيقة هو القدرة الأزلية والمشيئة السرمدية.

---

(1) [لطيفة] في الأصل: الطبقة.

الوجه الثاني: أن النهار عبارة عن مدة ظهور الشمس، والليل عبارة عن مدة اختفاء نور الشمس بسبب ظلّ الأرض، ومنافع الليل كثيرة على ما سنذكرها إن شاء الله تعالى، فإذا كان الأمر كذلك كان السبب القريب لحدوث الليل والنهار هو وجود السماء والأرض، ولهذا السبب فإنه تعالى [أينما][1] ذكر أحوال الليل والنهار ففي الأكثر يكون ذلك مسبوقاً بذكر السماء والأرض تنبيهاً على أن سبب الليل والنهار هو الأرض والسماء، ثم العجب أن السماء والأرض كالمتقابلين المتضادين ثم إنّهما صارا متعاونين على تحصيل أسباب مصالح هذا العالم والمتضادان يوجبان الفساد، فلمّا صار هذان الضدان موجبين لحصول أسباب الصلاح علم أن ذلك بتدبير مدبّر وتقدير مقدّر حكيم عليم حليم سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علوًا كبيراً، وهذا هو آخر الكلام في الدلائل المأخوذة من السماء والأرض، والله وليّ التوفيق.

(1) [أينما] في الأصل: أنما.